

من شرح ثلاثة الأصول

لفضيلة الشيخ المحقق

عبد الله بن محمد الغنيمان

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين



دار ابن الأثير


بسم الله الرحمن الرحيم


المحصول
من شرح ثلاثة الأصول

ح دارابن الأثير للنشر والتوزيع ،١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغنيمان ، عبد الله محمد
المحصول من شرح ثلاثة الأصول / عبد الله محمد الغنيمان
الرياض ،١٤٢٩هـ
٢٢٥ ص ، ٢٤X١٧ سم
ردمك: ١ - ٧٠ -٨٧٣- ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١- العقيدة الاسلامية ٢- التوحيد أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩/٣١٧٨

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣١٧٨ هـ
ردمك: ١ - ٧٠-٨٧٣- ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م



للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - ص . ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٥٣٦
هاتف : ٤٢٨٥٣٩٠ المعرض : ٢٦٧٧٥٨٤ فاكس : ٢٦٧٢٥٥٨
التوزيع : ٠٥٠٦١٠٨٦٦٧ - ٠٥٠٦١٠٨٧٠٧ الغربية : ٠٥٠٦٤١٦٠١٩

الموزع بجمهورية مصر العربية: ٠١٧٢٧٨٤٥٣٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله المتعالي عن الأنداد، المقدس عن النقائص والأضداد، المتنزه عن الصاحبة والأولاد، رافع السبع الشداد، عالية بغير عماد، وواضع الأرض للمهاد، مثبتة بالراسيات الأطواد، المطلع على سر القلوب ومكنون الفؤاد، مقدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد، في بحار لطفه تجري مراكب العباد، وفي ميدان حبه تجول خيل الزهاد، وعنده مبتغى الطالبين ومنتهى القصاد، وبعينه ما يتحمل المتحملون من أجله في الاجتهاد، يرى دبيب النمل الأسود في السواد، ويعلم ما توسوس به النفس في باطن الاعتقاد، جاد على السائلين فزادهم من الزاد، وأعطى الكثير من العاملين المخلصين في المراد، أحمده حمداً يفوق على الأعداد، وأشكره على نعمه وكلما شُكر زاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك الرحيم بالعباد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد، صلى الله عليه وعلى جميع الآل والأصحاب والتابعين لهم بإحسان إلى يوم التناد، وسلم تسليماً.

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة.

فإن من أهم ما يبادر به اللبيب في شرخ شبابه، ويدئب نفسه في تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله

واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهل العلم الذين جلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء، لعلمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

واعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة.

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيده ولا يستفيد منه ولا يعينه على ما هو بصدده؛ فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها.

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً ذكياً كثير الخير قليل الشر حسن المداراة قليل المماراة، إن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه وإن احتاج واساه وإن ضجر صبّره كما قال بعضهم:

إن أخاك الصدق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب زمان صدعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

ثم إنه ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفقته وظهرت مروءته وعرفت عفته، وكان أحسن

تعليماً وأجود تفهيماً، ولا يرغب الطالب في زيادة من العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل.

وبين أيدينا مؤلف عظيم صنفه داعية من دعاة الصراط المستقيم، العالم الأثري، والإمام الكبير، العلَّامة المجدد، أبو الحسين محمد بن عبدالوهاب، وهو كتاب (ثلاثة الأصول) وقام بشرحه فضيلة الشيخ العلَّامة، المحقق الورع، ناصر العقيدة السلفية، ذي الثقب الفاهم، والنظر المدقق شيخنا عبدالله بن محمد الغنيمان حفظه الله.

فقد منَّ الله عليَّ وشرفني بأن أخذت العلم على الشيخ، وأذن لي بتفريغ هذا الشرح ومراجعته عليه وطباعته، ثم خرَّجت أحاديثه وآثاره قدر استطاعتي.

وإنني إذ أقوم بهذا العمل لأعلم بأن هناك من طلبة العلم من هو أولى مني بهذا العمل، فقد ركبت مركباً لست له بأهل واقتحمت ساحة لست من فرسانها.

وأشكر كل من أعانني على إخراج هذا الكتاب ممن هم حولي وأخص منهم أخي الفاضل: عيسى بن محمد القرعاني، وأسأل الله جل في علاه أن يجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهه خالصة وألا يجعل لأحد فيها شيئاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهد بن أحمد الغامدي الأزدي

١٠/ ٥/ ١٤٢٨هـ

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الشـرح:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـد:

هذه الرسالة كُتِبَت لعامة المسلمين؛ لأنها متعينة التعلم، على كل فرد أن يعرفها ؛ لكون الناس قصروا في هذا الجانب، اختصرها الشيخ رحمه الله، واقتصر على الأمور المهمة التي لا يجوز للمسلم أن يجهلها، واقتصر على بعض الأدلة الواضحة الجليَّة التي يمكن لكل واحد أن يعرفها، وتعلمها متعين، والتعلم ليس مجرد قراءة، هذه يجب أن تحفظ ويفهم الكلام المراد، وذلك أن هذا سيسأل عنه الإنسان؛ لأنه خُلِق لأجل العبادة التي خلق الله جل وعلا لها خلقه ـ كل ما جاء به الرسول ﷺ من الواجبات والمحرمات ـ هذه الخلاصة، وهي كتبت للعامة ولم تكتب للعلماء؛ لأن العلماء يجب عليهم غير ما يجب على العامة، يجب عليهم أكثر من ذلك، ثم بدأ بالبسملة اقتداءً بكتاب الله جل وعلا؛ لأن أول ما في المصحف ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، افتتح بها، واختلف العلماء هل البسملة:

* آية مستقلة.
* أو أنها آية من كل سورة.
* أو أنها آية من سورة الفاتحة فقط وبقية السور جعلت للفصل بين السورة والأخرى وليست منها.

يعني ثلاثة أقوال للعلماء، **والراجح أنها آية من سورة الفاتحة**، ولهذا يتعيَّن على المصلي أن يقرأها، هذا هو الراجح؛ لأنها آية منها، وسورة الفاتحة سبع آيات كما نصَّ الله جل وعلا عليها، والرسول ﷺ أوجب قراءتها في كل صلاة.

وقد اتفقوا على أنها جزء آية من سورة النمل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]. هذا لا خلاف فيه، وإنما الخلاف هل هي آية من كل سورة؟

ثم كذلك الرسول ﷺ كان يبدأ بها في كتبه، إذا كتب كتاباً كتب قبله بسم الله الرحمن الرحيم، كما رويت كتبه ﷺ بهذا الأسلوب، وفي الحديث الذي رواه عدد من رواة العلم أن الرسول ﷺ قال: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ بذكر الله فهو أبتر**»(١). وفي رواية: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ به ببسم الله**»(٢)، وفي رواية: «**بالحمد لله**»(٣). فهو أبتر، فيتعين على الكاتب الذي يكتب كتب العلم أو غيرها أن يبدأ بذكر الله أولاً.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والباء للاستعانة، فيستعين بهذا الاسم الكريم، وكل أمر إن لم يكن الرب جل وعلا معيناً عليه، مهم أو غير مهم فلن ينجز ولن يتحصل على طائل، ولهذا قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يعني أبدأ بهذا

(١) أحمد (٨٦٩٧) باقي مسند المكثرين/ مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» للرهاوي (٤/ ١٤٧)، وأخرجه الخطيب في «الجامع» (٢/ ٦٩)، وقد أخرج الحديث بطرق كثيرة وألفاظ متعددة.

(٣) «تحفة الأحوذي» باب ما جاء في خطبة النكاح، و«تلخيص الحبير» باب استحباب خطبة النكاح.

الأمر مستعيناً بسم الله، واسم الله وصفه هو الذي سمى به نفسه جل وعلا وهو اسم مبارك، إذا ذكر على شيء فإنه يتبارك ويزيد وهو الذي إذا استعان به مستعين أعانه الله جل وعلا.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسماء الله جل وعلا دالان على الرحمة، التي هي الصفة وأحدهما أبلغ من الآخر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما هو معلوم في لغة العرب، يعني زيادة الحروف دليل على كثرة المعاني، الرحمن أكثر من الرحيم حروفاً، ولهذا جاء عن ابن عباس وغيره أنهما اسمان رقيقان وأحدهما أرق من الآخر[١]. ومعنى رقيقان: يعني يدلان على الرقة والرحمة، وأحدهما أدل من الآخر الذي هو الرحمن، ولهذا جاء «**رحمٰن الدنيا والآخرة**»[٢]. يعني أنه جل وعلا رحمته وسعت كل شيء فهي كثيرة جداً.

اكتفى بذكر الله، بالبسملة وهذا يكفي، وكثير من العلماء يجمع بينها وبين الحمد لله؛ لأنه في رواية بالحمد لله، وهذا البخاري رحمه الله في صحيحه اكتفى بذلك، ثم ذكر الحديث: «**إنما الأعمال بالنيَّات**»[٣].

* * *

(١) تفسير «الطبري» و«البغوي» وفي «الدر المنثور».

(٢) «المستدرك» (١٨٩٨) كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ومصنف ابن أبي شيبة (٢٩٥٩٨) كتاب الدعاء، باب ما ذكر عن قوم مختلفين مما دعوا به.

(٣) البخاري (١) كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**» من حديث عمر رضي الله عنه. ذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة».

اعْلـمْ

الشرح:

قوله: «اعلم»، أمر للسامع، بأن هذا أمر مهم، وعند الأمور المهمة ينبّه السامع بقول: اعلم؛ حتى تجتمع همَّته ويستعد لذلك، والعلم الذي يقصد به هو إدراك المعلومات وتيقنها على الوجه المطلوب وعلى وجه المطابقة التي أريدت.

* * *

رَحِمَكَ اللهُ

الشرح:

وقوله: «رَحمك الله» هذا دعاء للسامع الذي يُطلب منه معرفة ذلك، والدعاء مطلوب من المسلم لأخيه المسلم، ومن رحمه الله جل وعلا وقاه شر الجهل وشر الذنوب، وإلا لا أحد يخلو من جهل ومن ذنوب إلا من علمهم الله جل وعلا من أنبيائه وأصفيائه وأوليائه، وأصل الشر يأتي من الجهل ثم الذنوب؛ لأن الجهل هو الذي يبعث على الذنوب، ولهذا يقول الصحابة رضوان الله عليهم في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء: ١٧] . أن كل من عمل السيئة فهو جاهل؛ لأن العاقل لو عرف من عصى لا يمكن أن يُقدم على المعصية، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. الذين يعلمون بالله جل وعلا، ولهذا قال: «رحمك الله»؛ لئلا تقع في الجهل وفي آثاره من الذنوب، ومن رحمه الله جل وعلا أدركته السعادة بحيث يعمل بأسبابها في الدنيا ثم يكون على عمل يرضي ربه جل وعلا فيتوفاه

عليه، فيكون مرحوماً.

* * *

أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا.

الشرح:

هنا يقول: «يجب علينا»، جاء بالضمير الذي يدل على الجمع، يعني المسلمين، علينا أيها المسلمون عموماً، يعني كل مسلم ومسلمة.

* * *

تَعَلُّمُ أَرْبَعَ مَسَائِلَ:

الشرح:

يجب علينا تعلُّم أربع هذه المسائل، وهذا ينقسم إلى قسمين ـ أي هذا الوجوب ـ، قسم عيني على كل فرد من أفراد الأمة ذكر وأنثى، إذا بلغ التكليف وجب عليه، الثاني يجب على عموم الأمة وليس على أفرادها بأعيانهم، وهذا الذي يسمى فرض الكفاية، وهذه المسائل الأربع تنقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، المسائل الأربع التي سيذكرها منها ما هو فرض عين على كل مسلم ومنها ما هو فرض كفاية إذا قام به جماعة كافية من الأمة سقط الإثم عن الجميع وإلا أثمت الأمة كلها، لأنه لا يجوز أن يجهل شيء مما جاء به الرسول ﷺ لعموم الأمة، والرسول ﷺ بلَّغ، جاء بالبلاغ المبين وقد حفظ ذلك.

* * *

المسألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

الشرح:

ثم قال في تفصيل الأربع مسائل: «الأولى: العلم»، العلم كما قلنا ينقسم إلى قسمين: علم فرض عين، وعلم فرض كفاية. وفرض العين معناه على الأعيان، كل إنسان بعينه يجب عليه العلم، أن يعلم وفي الحديث: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(١). والمسلم يدخل فيه النساء، ولهذا اللفظ الذي فيه «**ومسلمة**» ضعيف.

العلم فريضة على كل مسلم، فهذا الفرض الذي يجب علينا تعلُّمه ويكون على الأعيان مثل معرفة الله جل وعلا بأن يعرف ربه معرفة لا يكون شاكاً فيها، ويجب أن يكون بالدليل كما سيأتي، لأنه إذا لم يكن بالدليل لا يصل إلى اليقين، ومعرفة الدين ومعرفة الرسول ﷺ تكون فرض عين، فيجب أن يعرف التوحيد، عبادة الله والعبادة يجب أن تكون خالصة لله مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة والركوع والسجود والدعاء والنذر والذبح والخوف والخشية والإنابة وأنواع العبادة، كل العبادة يجب أن يعرف أنها حق لله جل وعلا وليس لأحد من الخلق فيها شيء، هذا فرض، فرض على العبد أن يعرف ذلك.

وكذلك يجب عليه أن يعرف الصلاة، التي فرضها الله عليه ويعرف ما

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٤) كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، و(٦٦٠٦) كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، ومسلم (١١١) كتاب الإيمان، باب بيان غلظ قتل الإنسان نفسه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١١٤) باب تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٨٧١) كتاب الحج، باب ما جاء في كراهية الطواف عرياناً، و(٣٩٢) كتاب التفسير، من سورة التوبة، من حديث علي رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: صحيح دون قوله: وواضع العلم... إلخ، فإنه ضعيف جداً.

يشترط لها، يعرف مثلاً كيف يتوضأ وكيف يتيمم إذا فقد الماء وكيف يصلي إذا كان صحيحاً وكيف يصلي إذا كان مريضاً وكذلك إذا كان عنده مال يجب أن يعرف كيف يزكي المال، ما مقدار الزكاة ومن يعطيها، يجب أن يعرف هذا، أما إذا لم يكن عنده مال فليس واجباً عليه، إنما يجب على من عنده مال كذلك يجب أن يعرف أن الله أوجب عليه صوم رمضان ويعرف معنى الصوم الذي هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، المفطرات التي تفطر الصائم.

وكذلك يجب أن يعرف كيف يبيع ويشتري في الشيء الذي يلزمه، حتى لا يقع في الربا، ولا غيره من المحرمات، فإن لم يعرف ذلك فهو آثم، كذلك يجب عليه أن يعلم أن الزنا حرام وأن الربا حرام وأن الفواحش ما ظهر منها وما بطن قد حرمها الله جل وعلا، يعتقد ذلك، وهذه من الأمور الفرضية العينية التي تجب على الإنسان، هذا الذي يسمى في هذه المسألة فرض عين يتعين وهو كما عرفنا يختلف باختلاف الناس.

كذلك يجب عليه أن يعرف أحكام النكاح إذا كان يريد أن يتزوج، والطلاق والرجعة والشيء الذي يلزم لهذا؛ لأن هذه أمور مكلف بها الإنسان، لا يجوز أن يجهلها.

أما الفرض الكفائي في هذه المسألة فهو واسع جداً فإنه يجب على الأمة بعمومها ألا يفوتها شيء مما جاء به الرسول ﷺ من جميع العلوم التي تتعلق بالدين من فقه وحديث وفرائض ولغة وغير ذلك، ومثل المنسوخات والمحكمات والعمومات والخصوصات وغيرها، هذه تلزم

العلماء الذين عندهم مقدرة على ذلك ولا تلزم عوام المسلمين، ولهذا صار طلب العلم أفضل من صلاة التطوع ومن صدقة التطوع ومن سائر الأعمال التطوعية؛ لأن فيه تبليغ وحفظ الدين فيه حفظ ما جاء به الرسول ﷺ، فالتعلُّم والتعلِيم من أفضل الأعمال إذا صلحت النية، وإلا العلم إذا فقد النية الصالحة يكون وسيلة عذاب ـ نسأل الله العافية ـ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن أول مَن تسعَّر به جهنم ـ نسأل الله العافية ـ ثلاثة، أحدهم المتعلم[١]، الذي تعلَّم ليقال هو عالم ومناظر، هو يستطيع أن يرد، هو يستطيع أن يتكلم، ويطلب أن يثنى عليه ويمدح ويشار إليه بالعالم الفلاني؛ لأنه في الواقع يعبد هواه.

والمقصود أن العلم على هذا ينقسم إلى قسمين: العلم الواجب على كل فرد بعينه، وهو الذي يلزمه في أمر دينه الذي لابدَّ منه، يجب أن يتعلمه ولا يجوز أن يكون يأخذ ذلك عما يشاهده من الناس فإن هذا يسمى التقليد، والتقليد في مثل هذه الأمور لا ينفع فلابد أن يعرف أنه تجب عليه الصلوات الخمس وما يبطلها، ويعرف واجباتها وشروطها وأركانها.. إلخ، وسيأتي ذكر ذلك لأنه رحمه الله لما ذكر هذه المسائل أراد أن يذكر الشيء الواجب المتعين الذي لابد منه وسيذكر ذلك، هذه المسألة الأولى: العلم. والقسم الثاني العلم الكفائي كما سبق.

❊ ❊ ❊

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٣٨٢) كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن غريب وصحَّحه الألباني.

المسألة الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ.

الشرح:

لأن العلم وسيلة للعمل، والعمل هو ثمرته، فالعلم مثل الشجرة والعمل مثل الثمرة، الثمرة هي المقصودة، الشجرة ليست إلا وسيلة وسبب إلى ذلك، فيجب أن يعمل بعبادة الله جل وعلا، أن يعبد الله وحده، يعلم ثم يعبد ربه جل وعلا، فيجعل التوحيد لله جل وعلا، في الصلاة والدعاء والنذر والصوم والصدقة وغيرها، كل الأعمال يجب أن يجعلها لله جل وعلا، وكذلك سائر ما يعلمه من الشرع يعمل به، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمن الناس من يجب عليه ما لا يجب على الأخر في هذه المسألة، مسألة العلم، ولهذا نقول أيضاً: أن هذه تأتي فرض عين وفرض كفاية، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يجاهد ولا يستطيع أن يطلب العلم الذي يدخل في فرض الكفاية، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، يكون تكليفه على حسب وسعه وطاقته، الذي يستطيع العمل ليس كالذي لا يستطيع، فيجب على من استطاع أكثر مما يجب على الذي لا يستطيع، ولكن العمل يشمل الشرع كله، وهذا الذي يكون فرض كفاية يكون كثيراً منه فرض كفاية، أما الشيء الذي يتعين على الإنسان بعينه فهو فرض عين.

* * *

المسألة الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشرح:

الدعوة إلى العلم الذي تعلمه، والدعوة هي سبيل الرسل والله جل

وعلا يقول: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ أمر من الله جل وعلا يأمر به رسوله ﷺ أن يقول لمن يبلغهم ذلك ولمن يصل إليهم هذا الكلام ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾يعني الدعوة التي جئت بها هي التي أحيا من أجلها وأموت عليها وليس لي عمل غير ذلك، فعليها حياتي وعليها مماتي فهي سبيلي الذي أسلكه في حياتي، ليس لي مسلك وطريق غيرها، ما جاء صلوات الله وسلامه عليه إلى القصور لعمارتها ولا لإجراء الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لغير ذلك من أمور الدنيا، وإنما يفعل من ذلك الشيء الذي لابد منه، وإن كان ليس في هذا الأمر بترك للدنيا، ولكن لا يجوز أن تكون الدنيا على حساب الدعوة إلى الله، فالدنيا تكون تبعاً لهذا، إذا كان الإنسان كمل الدعوة إلى الله تعالى تكون الدنيا عوناً على ذلك، ولا بأس أن يأخذ الدنيا ولكن يجب أن لا ينسى حق الله فيها ويجب ألا تشغله عما هو فرض عليه، ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. أدعو هنا بيان للسبيل، بينها بعدما قال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾، ثم قال: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وليس دعاء مطلق حتى تكون الدعوة بإخلاص، يكون الدعاء إلى الله بحق وبصدق وليست دعوة لغير ذلك.

قال الشيخ رحمه الله في مسائل التوحيد على هذه الآية: «أما قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ تنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس وإن دعا في الظاهر إلى الله فهو في الحقيقة يدعو إلى نفسه». أهـ.

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]. والبصيرة هي العلم الذي هو فرض علينا، يعني يدعو على علم من الله جل وعلا أن هذه الدعوة تجب وأن الدعوة بكذا وإلى كذا.

قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني، أو أنا أدعوا على بصيرة ومن اتبعني وكله جائز، والآية تدل على هذا وهذا، وكذلك غيرها من الآيات كثير يدل على وجوب الدعوة، ولكن الدعوة إلى الله جل وعلا تنقسم إلى قسمين: دعوة إلى الجهاد، والجهاد مراتب: منه ما هو فرض عيني، ومنه ما هو فرض كفائي، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من مات ولم يغزو ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**»(١)، ومعنى «يحدث نفسه» يعني يعزم وينوي أنه سيغزو في سبيل الله، فالجهاد مرتبتان بل الجهاد يكون جهاد للنفس وجهاد للشيطان وجهاد للكفار والمنافقين.

أما جهاد النفس فهو ثلاث مراتب: جهاد النفس في عمل الطاعات، وجهادها في الصبر عن المعاصي، وجهادها على المكاره من هذا وهذا، ثم جهاد الشيطان يكون جهاد له فيما يلقيه من الشبهات والشكوك، وهذا يكون بالعلم، وجهاد له فيما يلقيه من الشهوات في النفوس التي تميل إليها والأمراض، أمراض القلوب؛ لأن المرض ينقسم إلى قسمين: مرض شهوة ومرض شبهة، ولهذا لما ذكر الله جل وعلا أمر النساء بالحجاب وأن

---

(١) مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغزو ولم يحدِّث نفسه بالغزو، والنسائي (٣٠٩٧) كتاب الجهاد، باب التشديد في ترك الجهاد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في المشكاة.

يغضضن من أصواتهن قال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] الذي في قلبه مرض الشهوة، إذا سمع المرأة بصوتها الرخيم الرقيق تثور شهوته؛ لأن عنده مرض الشهوة، فأمرت بأن تواجه الرجل بصوت غير هذا، وهذا هو جهاده من هذين الوجهين.

أما جهاد الكفار فيكون بالنفس وبالمال وباللسان، ويكون الجهاد بالقلب وبكراهتهم وبغضهم ومعاداتهم والعزم على إظهار ذلك والعمل عليه، ويكون بالمال بأن يجاهد بماله، ويكون بيده بنفسه، ويكون بلسانه، وجهاد الكفار والمنافقين كله بهذا، والله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. جاء هذا في آيتين من القرآن، ولكن جهاد الكفار باليد أخص وجهاد المنافقين باللسان أخص يحتاجون إلى بيان أحوالهم وأوصافهم وما هم فيه، فهذا كله من العمل الذي يجب على الناس عموماً وخصوصاً يعني منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، وجهاد الكفار بالنفس ذكر العلماء أنه يصبح فرض عين في ثلاث مواطن:

الموطن الأول: إذا حضر القتال، كل مسلم يحضر القتال بين المسلمين والكفار يجب عليه أن يقاتل وإلا يصبح من الذين تولوا يوم الزحف وهو متوعد بالنار ـ نسأل الله العافية ـ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]. هذا استثناء ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]. وهذا يدل على أنه فرض عين وهو المقصود.

الموطن الثاني: إذا داهم العدو البلد الذي فيه المسلم وجب عليه أن يجاهد ولا يجوز أن يتخلف فهو فرض عين على كل من كان فيها وهو قادر.

الموطن الثالث: إذا عينه إمام المسلمين، قال له أنت تجاهد تعين عليه ووجب أن يجاهد.

أما ما عدا ذلك فهو فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

والجهاد يجب ألا يعطل؛ لأن الله أمر به فيجب أن يقام، ولهذا جاء في الحديث: «**ما دام العدو يقاتل فالإسلام فيه عز أو عزيز**»، وجاء أنها تقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها[1]، وعند طلوع الشمس من مغربها يتعطل الجهاد في سبيل الله؛ لأنه لا ينفع نفس عمل تزيد به، والجهاد من أفضل الأعمال كما أخبر الله جل وعلا فإنه ثبت في الحديث الصحيح أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا أي الأعمال أحب إلى الله، فأنزل الله جل وعلا سورة الصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١][2].

(١) «سنن أبي داود» (٢٤٧٩) كتاب الجهاد، باب في الهجرة، هل انقطعت؟ من حديث معاوية رضي الله عنه، صححه الألباني.

(٢) «سنن الترمذي» (٣٣٠٩) كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الصف»، من حديث عبدالله ابن سلام رضي الله عنه، قال الترمذي: خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي، وقال الألباني: هو صحيح الإسناد.

والإيمان بالله قبل الجهاد لابد منه، ولكن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، إذاً يتبين لنا أن الجهاد منه ما هو فرض كفاية ومنه ما هو فرض عين، ففرض العين على الإنسان أن يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان وهذا فرض عين على كل إنسان، أن يجاهد نفسه في فعل الواجبات التي أوجبها الله عليه ويجاهد في كفها ومنعها عن المحرمات التي حرمها الله جل وعلا، والجهاد لابد منه لأن هذه الحياة كلها جهاد وكفاح، أما أن الإنسان يجلس مسالماً لا يمكن أن ينجح بل يخسر لأنه تستولي عليه نفسه ويستولي عليه الشيطان، فيهلك إن لم يجاهد نفسه والشيطان، وجهاد الشيطان فرض عين يجب أن يجاهده، والشيطان يرانا من حيث لا نراه كما قال الله جل وعلا، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم[(١)]، يدخل في جسده ويشمه ويلقي خرطومه على قلبه ويشمه ويرى ماذا يريد وماذا يحب فيزين له ذلك والله جل وعلا كرر الأمر بمجاهدته بآيات كثيرة وأمرنا أن نتخذه عدواً، والعدو يجُاهد، هذا الذي هو فرض عين،

أما مجاهدة العدو باليد وبالمال، وكذلك جهاد القلب على كل واحد يجب أن يجاهد بقلبه ولا يجوز أن يخلو القلب من مجاهدة أعداء الله، هذه مسألة الدعوة إلى الله، أن يدعو إلى الله فيكون الجهاد من الدعوة.

والدعوة أمرها واسع، تكون بالقلب وتكون بالتعليم وتكون بالعمل بالاقتداء بأن يكون الإنسان قدوة ويدعو بعمله، ويكون كذلك بالمال ويكون بكتابة بيان حكم الله جل وعلا وحكم رسوله ﷺ وبيان تمييز

---

(١) «البخاري» (٢٠٣٩) كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه، و«مسلم» (٢١٧٤) كتاب السلام، باب دفع ظن السوء.

الحق من الباطل فيما يلتبس به وقد يلبس به الأعداء فهو من الجهاد ومن أعظم الجهاد.

* * *

المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

الشرح:

فالصبر أيضاً يكون صبر متعين على كل أحد بحسب الشيء الذي يلزمه فيه، صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله وأحكامه القدرية، فيكون الصبر ثلاثة أقسام وهو واجب، وإذا أصابه شيء وجب عليه أن يصبر فلا يجوز أن يتسخَّط من قضاء الله جل وعلا، ولكن هذا داخل فيه، الصبر على الأذى فيه يعني الدعاء.

والعلم إذا علمه الإنسان ثم عمل به ثم دعا إليه لابد أن يؤذى، كل من دعا لابد أن يؤذى فيجب أن يصبر على الأذى، أمر الله بذلك رسوله في آيات كثيرة، أمره بالصبر، أن يصبر صبراً جميلاً، وأمره أن يدفع بالتي هي أحسن وأن يصبر ويحتسب صبره بالله ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقول كثير من المفسرين أن الآيات التي جاء فيها الأمر بالصبر منسوخة بآية السيف غير سديد وغير دقيق بل هو خطأ في الواقع، إلا إذا أريد بالنسخ التخصيص لأنه قد يطلق النسخ ويراد به التخصيص، أما إذا أريد به إزالة حكم بإبداله بحكم آخر فهذا لا يجوز، ولهذا ذكروا أن آية السيف نسخت ما يقارب من خمسمائة آية وهذا غير صحيح، آية السيف نسخت الأمر بعدم جهاد الكفار؛ لأن الجهاد بالأول كان ممنوعاً لما كان المسلمون في مبدأ أمرهم ضعفاء وكانوا في مكة قلة بحيث لو

جاهدوا يمكن أن يقضى عليهم، فكانوا ممنوعين من المجاهدة مأمورين بالصبر، ثم بعد ذلك أذن لهم في الدفاع ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩]، أذن لهم في القتال دفاعاً عن أنفسهم وعن أموالهم وأولادهم فقط ثم بعد ذلك جاء الأمر بالجهاد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] يعني عموماً. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وهناك آيات كثيرة تأمر بالجهاد والقتال، فهذه لا يجوز أن نقول أنها منسوخة بآية السيف، بل هي باقية محكمة ولكن المسلمون إذا وقعوا في مثل هذه الحالة التي تشبه حالة المسلمين في أول أمرهم في مكة فإنهم يؤمرون بالصبر وعدم الدخول في الجهاد؛ لأنهم إذا جاهدوا في هذه الحالة قُضي عليهم ومُحوا، وإذا تَقَوَّوا شيئاً ما، يعني أن الأمور والأطوار التي كان الرسول ﷺ سار فيها أنها باقية، إذا وقع المسلمون في الحالات التي تشبهها يستعملونها، وهذا هو الصواب والحق الذي يجب أن يعمل به، فقوله: «الصبر على الأذى فيه» يعني في العلم الذي علمه ودعا إليه، أن يصبر على الأذى وذلك لأن دعوته لله، والذي تكون دعوته لله لابد أن يصبر أما إذا كانت لغير الله فلن يصبر، والله أعلم.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر كاملة].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله تَعَالَى: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

الشرح:

ذكر قول الشافعي بالمعنى، والذي روي عن الشافعي: لو تأمل الناس في هذه السورة لوسعتهم، والمعنى قريب.

وقوله جل وعلا: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]. هنا أقسم، والله جل وعلا يحلف بما شاء، ويقسم بما يشاء من خلقه، أما نحن فلا يجوز أن نقسم إلا بما أذن لنا الله جل وعلا فيه، وهو ربنا جل وعلا، أن نقسم به أو بصفة من صفاته، وما عدا ذلك لا يجوز، وفي الحديث: «**من حلف فليحلف بالله أو ليصمت**»(١)، وفيه: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٢)، وفيه: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**»(٣).

---

(١) «البخاري» (٢٦٧٩) كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟ قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢]، و«مسلم» (١٦٤٦) كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ذكره الألباني في «غاية المرام»..

(٢) «سنن الترمذي» (١٥٣٥) كتاب الإيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: صحيح.

(٣) «البخاري» (٦٦٤٦) كتاب الإيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، و«سنن الترمذي» (١٥٣٤) كتاب الإيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح.

فالحلف بغير الله لا يجوز لنا، والله جل وعلا يقسم بالآيات التي تكون دليلاً على وحدانيته وعلى ملكه وقهره وتفرده، والعصر هو الزمن، الليل والنهار، لما فيه من الآيات وهو محل العمل وهو محل الربح أو الخسارة، ربح الإنسان أو خسارته، لأنه مزرعته ومزرعته عمره الذي هو عبارة عن ساعات، كل ساعة تمر على الإنسان يمضي وقت من عمره حتى ينتهي أجله، فتطوى صحيفته ويختم عليها فلا يستطيع أن يزيد فيها حسنة ولا ينقص من السيئات سيئة، ومن أجل ذلك لدلالته على أنه من آيات الله جل وعلا وأن الله جل وعلا خلقه وجعله دالاً عليه ولكونه أيضاً مزرعة، مكسباً للسعادة ومكسباً للشقاوة، أقسم به جل وعلا فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]. ثم المقسم عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]. و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ جنس الإنسان ويشمل كل من صدق عليه أنه إنسان من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]. يعني كلهم خاسرون، كل إنسان خاسر، ثم استثنى من الخاسرين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾ يلزم أن يكون الإيمان عن علم، أي سبق الإيمان علم، ثم الإيمان عمل في القلب وعمل في الجوارح، ثم التواصي بالحق دعوة إلى العلم الذي ذكره؛ لأن الإنسان يجب أن يدعو، فالدعوة فيها التواصي، يوصي بعضهم بعضاً بالحق والعمل به والتمسك به، ثم التواصي بالصبر، فإذاً السورة فيها المسائل الأربع التي ذكرها فهي دليل على وجوب ذلك، ووجه الدلالة واضح وهو أن الإنسان خاسر إن لم

يكن مؤمناً وإن لم يكن من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فالإيمان يسبقه العلم والإيمان عمل، وعمل الصالحات تأكيداً وزيادة بيان، والتواصي بالحق دعوة إليه، دعوة لهذا العلم، والتواصي بالصبر أن يصبر على ما يناله فيه، ولهذا تكون السورة جامعة عظيمة جداً، ولهذا يقول الشافعي: لو تأملها الناس لوسعتهم، لو تأملوا معانيها التي دلت عليها لوسعتهم يعني في دينهم وفيما يلزمهم. هذا معنى وسعها أنها تسعهم فيما يلزمهم في عبادة الله جل وعلا ودينه، ثم ذكر دليلاً آخر وهو ما ذكره البخاري مستدلاً به على هذا المعنى.

* * *

وَقَالَ البُخَارِيُّ رحمه الله تَعَالَى: بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ «قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ».

الشرح:

القول هو قول ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. والعمل ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. فدل على أن العلم يسبق وأن العمل لابد منه، والعمل يكون منه قول، والقول هو الذي ذكره البخاري وهو أول فرض على الإنسان ولكن يسبقه العلم، والفرض على الإنسان أن يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، هذا أول ما يجب على الإنسان وهو الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، فأول رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا معنى لا إله إلا الله،

وكذلك الذين جاءوا بعده، ويقول الله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [النحل: ٣٦]، يعني كل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، فعبادة الله هي معنى لا إله إلا الله واجتناب الطاغوت الذي اشتملت عليه الكلمة، الكلمة اشتملت على نفي وإثبات، النفي هو نفي المعبودات غير الله جل وعلا وهي الطواغيت، والإثبات إثبات العبادة لله وحده، فإذاً قوله: «باب العلم قبل القول والعمل» أمر متفق عليه بين العلماء، أنه يجب على الإنسان أن يعلم أولاً وذلك أنه إذا عمل بلا علم فيكون شبه فعل الساهي والسكران والمجنون ليس ثابتاً، وإذا شُكِّك بذلك شك وإذا نُسِّيَ نسي، خلاف الشيء الذي يكون بالعلم فإنه يثبت ولا يتزحزح عنه فلابد منه ثم لابد من العمل بالعلم، يعمل بعلمه ثم بعد ذلك يدعو ويصبر على الأذى فيه فهذه المسائل الأربع يتبين منها أنها تكون فرض عين وتكون فرض كفاية.

وقوله: «اعلم رحمك الله» خطاب لكل فرد من الأمة أن هذا يجب عليه، وعليه أن يعرف الشيء الذي يلزمه والشيء الذي يلزم الأمة عموماً ليس لازماً له إذا لم يكن من أهل العلم. والله أعلم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد.

* * *

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ.

الشرح:

في الأول يقول: «اعلم أنه يجب علينا» وهنا يقول: «اعلم أنه يجب

على كل مسلم ومسلمة»، والفرق بين هذا والذي قبله أن هذا فرض يتعين على كل فرد، يجب على كل مسلم ومسلمة.

* * *

تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل.

الشرح:

هنا يقول: «تعلم» أي يجب أن يعلم ذلك، وليس مجرد تعلم فقط، يتعلمها؛ لأنها واجب علمها، وواجب أن يعلم ذلك، وهذا لا ينافي السابق وإنما هو تأكيد له.

* * *

والْعَمَلُ بِهِنَّ.

الشرح:

لابد من التعلم والعمل، وسبق أن العلم قبل العمل، وأنه مقدم عليه؛ لأن من شرط العمل أن يكون الإنسان عالماً لابد، وفي ضمن هذا مسألتان:

أحدهما: أن يعلم ما كلفه الله به، وهذا أصل من الأصول الثلاثة.

والثاني: أن هذا العلم الذي يعلمه يجب أن يكون عن طريق الرسول ﷺ ليس عن طريق العقل، ولا عن طريق التقليد، ولا عن غير ذلك، وهذا أصل آخر، أن يعلم أن الله أوجب عليه ذلك وأن يأخذ ذلك عن الرسول ﷺ ولهذا لا يمكن أن يقبل عمل من الأعمال إلا بهذا، كل الأعمال مبنية على ذلك، والعلم ليس مجرد الوصول إلى معرفة أن هذا واجب وهذا محرم، العلم المقصود به أن يصل إلى القلب ويتحلى به القلب، ويصبح

قاصداً ربه جل وعلا بذلك، خاضعاً له ذالاً لأمره ومنقاداً له، أما العمل فهو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر فقط، وهذا أمر يتقيد بالشيء المعين الذي عينه رسول الله ﷺ علينا، على كل مسلم؛ لأنه ما جاءنا بأوامر مطلقة وأوامر كثيرة ونواهي كذلك، بل أمرنا بخمس، خمسة أمور إذا حافظنا عليها دخلنا الجنة، والخمس سهلة وليست صعبة، الأولى منها: أن نعبد الله جل وعلا بالأمر الذي جاء به الرسول ﷺ ومعلوم أن هذه تشمل الخمس كلها، أي أن عبادة الله تشمل كل الخمس، ولكن خصت الخمس للتأكيد وزيادة البيان، وهي عبارة عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه واحدة؛ لأن الرسول ﷺ الذي يبين وهو الذي يأتي بالأمر والنهي من عند الله، فمعنى ذلك أنه لابد لنا من واسطة بيننا وبين ربنا، واسطة توصل إلينا أمر الله جل وعلا ونهيه؛ لأن الله لا يكلمنا ولا يوحي إلى كل فرد، هذه الواسطة هي الرسول ﷺ، والواسطة تكون في شيء معين فقط وليس في كل شيء، في إيصال الأوامر والنواهي، أن هذا أمر الله كلفنا باتباعه وهذا أمر الله كلفنا باجتنابه، فهذا الأصل الثاني، يعني كون الواسطة هو الرسول الذي يبين لنا، الأول أن تعلم أننا مكلفون، وسيكرر هذا ويفصله فيما بعد، يفصله بطريقة السؤال والجواب، ولكن هو أتى به مجملاً هنا، ويكفي هذا الإجمال؛ لأنه واضح وبين.

* * *

أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا،

الشرح:

مجرد الخلق والرزق هذا قد يدركه عاقل، وهذا لا يكفي في كون

الإنسان ينجو من عذاب الله جل وعلا، بل هذا لا يتميز به المؤمن من الكافر، الكافر يدرك ذلك ولا ينفعه، يدرك أن الله خالقه وأن الله رازقه ولا يجدي عنه شيئاً في ذلك.

ولكن المقصود بالخلق أن يستدل به على أنه مكلف بعبادة الله جل وعلا، خلق ورزق ولم يترك الخلق كالبهائم تأكل وتشرب وتلهو وتطرب بل قيد بأوامر وقيد بنواهي يجب أن يمتثلها وإن لم يمتثلها فإنه لا يكون عبداً لله جل وعلا بل يكون عبداً للشيطان وعبداً لهواه وأكله وشربه ولهوه وطربه، والإنسان لا ينفك عن هذين الأمرين، إما أن يكون عبداً لله جل وعلا أو يكون عبداً لهواه أو عبداً لشيطانه أو عبداً لشهواته أو عبداً لرئيسه وسيده أو عبداً لزوجته أو عبداً لما شاء الله جل وعلا من الخلق، جزاء من الله جل وعلا أن الذي يعرض عن عبادة الله جل وعلا أن يجعله عبداً لمخلوق مثله، فيكون عبداً لمخلوق مثله ضعيف لا يملك شيئاً.

ثم بعد ذلك إذا انتهت حياته هذه وهي قصيرة ليست طويلة سيُجمع مع معبوده في نار جهنم ويكون كل واحد يلعن الآخر، يلعنه لأنه يرى أنه هو السبب في هلاكه، والواقع أنه هو الذي أهلك نفسه، وهذا كرره ربنا جل وعلا في القرآن كثيراً حتى نتنبه ونعرف ذلك ونجتنبه، ومقصوده أن هذا أمر واضح، كون الله خلقنا أمر واضح وهو دال على وجوب العبادة، خلقنا وخلق لنا ما نأكل وما نشرب وما ينفعنا كله من مخلوقات الله جل وعلا وتسخيره كما قال جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ

تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

ففي الآية أن كل شيء من الله جل وعلا، الإيجاد ابتداءً والقيام على الحياة بعد الإيجاد بما ينفعها وما يصلحها، فهو الذي ابتدأ وجودنا جل وعلا، وهو الذي أنعم علينا بما يصلحنا، يصلح أبداننا ويصلح نفوسنا ويصلح ما نحتاج إليه من دنيانا، كلها من الله جل وعلا وهو الذي أنعم علينا بما يصلحنا، ولهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١].

فأمر العبادة أولاً ثم أمر بالدليل الذي يوجب أن نعبده وهو كونه جل وعلا خلقنا وخلق لنا ما ينفعنا، فهو مالكنا وهو الذي بيده حياتنا وموتنا، فيجب أن نعبده، فإذا لم نفعل ذلك فإنه قد أعد لنا عذاباً عظيماً جداً، عذاب النار. نسأل الله العافية.

* * *

وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً،

الشرح:

الهَمَل هو الذي لا يؤمر ولا ينهى ولا يوجه، ولهذا تسمى الإبل التي تنفلت من أصحابها: همل لأنها ليس لها أحد يوجهها ويقوم على مصلحتها بل تسلك الطريق، إما أن تهلك وتعطب وإما أن تجد من يقوم عليها من غير أهلها، فالهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى، والله جل وعلا نفى ذلك، يقول جل وعلا: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَـٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. يعني لا يؤمر ولا ينهى ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ

ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]، يقول جل وعلا أن كثيراً من الناس أو أكثرهم يتصورون فيما هم فيه من حياتهم أنهم لم يكلفوا بالأمر والنهي، أنهم خلقوا لهذه الحياة يتصرفون فيها حسب مراداتهم وأهوائهم، وهذا هو الأمل، يتصرف على ما يروق له، مثل ما يقول كثير من الناس أنا حر أفعل ما أريد، هذا كذب لست حراً أنت عبد لله جل وعلا يجب عليك أن تمتثل أمره تجتنب نهيه، فالذي يقول كذا يعني أنه شبه البهائم، شبه البهيمة ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿سُدًى﴾ هو الذي لا يؤمر ولا ينهى مهمل، ثم بين الدليل على أنه لا يترك سدى من نفس الإنسان، بين ذلك من نفسه فقال: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. كان قطرة من ماء مهين قذرة لو تركت ساعة من النهار لفسدت وأنتنت ولكن الله جل وعلا جمع بينه وبين ماء المرأة في قرار مكين وجعل من الأسباب الداعية لذلك ما هو دليل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يعبد ويطاع، فركب الشهوة للجانبين الداعية لذلك وإلا لو ترك الإنسان وعقله بدون مؤثرات ما التقيا؛ لأن المناظر سيئة، عورة تلتقي بعورة والعقل ينفر من ذلك، ولكن الله جل وعلا بقدرته وحكمته ركب في الإنسان الشهوة التي تدعو إلى ذلك ثم الأمور الداعية لإخراج الماء من مكان ضيق، يخرجه من بين الصلب والترائب ثم يستقر في مكان محفوظ ثم يكون الله جل وعلا منه الإنسان، وهذا الماء المهين يستحيل ثم يصبح دم ثم يستحيل ويصبح قطعة لحم ثم يكون عظاماً ثم يركب منه أعضاء وأجزاء ويفتح فيه منافذ من الفم والأنف والعينين

والأذنين ويركبه تركيباً من أعجب ما يكون.

من الذي يفعل هذا؟

لا المرأة ولا الرجل ولا أحد من الخلق، فآيات الله جل وعلا في الإنسان ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. هذا معنى قول المؤلف «خلقنا» يعني يجب أن يفكر الإنسان في خلقه، وذكر الله جل وعلا خلق الإنسان في كتابه كثيراً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، بين أنه خلقه خلقاً عجيباً وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، يعني في أنفسكم آيات تدل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن تعبدوه توحدوه وأن تمتثلوا أمره، ثم جعل هذا دليلاً على النشأة الأخرى، على المعاد، على أنه سيعيدهم مرة أخرى ويجزيهم على أعمالهم، فهو دليل الموجود على الموجد ودليل على الجزاء والإعادة التي سوف تكون بعدما تفنى هذه الأبدان وتبقي أرواح إما معذبة أو منعمة.

* * *

بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً،

الشرح:

هذه هي الأولى في ضمنها ثلاث مسائل هي الأصول الثلاثة، في ضمنها وجوب عبادة الله جل وعلا وفيها أن العبادة تكون بالأمر والنهي، بأمر الله ونهيه، وفيها أن الأمر والنهي يأتي به الرسول ﷺ، فهذه هي الأصول الثلاثة التي يجب على المسلم أن يتعلمها ويعرفها وما بعد هذا كله من الواجبات التي تجب لهذه الأصول، كون العبادة توحيداً، وتوحيد الله جل وعلا، أن يفرد بالعبادة، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا

كانت لله وحده وهو التوحيد، أما عبادة مشتركة تكون بين الرب جل وعلا وبين غيره من المخلوقات، فهي وإن سميت في اللغة عبادة فهي باطلة وهي الشرك الذي حرم الله جل وعلا الجنة على صاحبه إذا مات على ذلك.

فالرسول الذي يرسله من حكمته جل وعلا ورحمته أنه يجعل معه آيات تدل على أنه رسول من عند الله لئلا يغتر الناس بأن كل من قال: أنا رسول أو أنا جئت بكذا وكذا من عند الله يلتبس ذلك بما هو حق، فجعل له آيات في نفسه كما سيأتي وآيات يجعلها الله جل وعلا له لا قدرة له فيها، وإنما هي من خلق الله جل وعلا وبأمره وإرادته كما سيأتي في كيفية معرفة الرسول.

كيف نعرف رسولنا ﷺ، وكيف تعرف الأمة رسولها؟ كل أمة لها رسول ولابد أن تتحقق من ذلك، أما معرفة الله جل وعلا بأنه خلقنا، فإذا لم يهتدي الإنسان إلى ذلك في نفسه فإن أمامه أشياء كثيرة جداً تدل على أن الله خالقه، ومن المخلوقات المشاهدة كما قال الله جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وسواء قلنا في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الرسول أو الدين الذي جاء به كله سواء ويشمل هذا وهذا، يتبين أن الرسول حق جاء من عند الله وأن الدين الذي جاء به حق جاء من عند الله كله يتبين من ذلك بالنظر.

والله جل وعلا جعل في الإنسان عقلاً منذ خلقه، وفطره على فطرة المعرفة، معرفة المؤثر أن كل أثر له مؤثر ولابد حتى الطفل الصغير، إذا ضُرب وتألم، لو قلت له لم يضربك أحد أسكت، لا يقتنع بذلك ولا

يرضى حتى تقول اضرِبُ من ضربك، ومن الذي ضربك أعاقبه، عند ذلك يقتنع لأنه يعرف أن الضرب له ضارب، والأثر له مؤثر، هذا أمر مفطور عليه المخلوق حتى الصغير الذي لم يميز حتى الآن.

فلهذا إذا نظر الإنسان لما حوله من الجبال ومن الأشجار ومن الأنهار ومن البحار ومن السماء ومن النجوم والرياح والسحاب والأمطار وغيرها لابد أن يكون لهذه موجد أوجدها، لأنه لا يمكن أن يكون جبل يوجِد جبل ولا شجرة توجِد شجرة، ولا إنسان يوجِد إنساناً، ولا يمكن أن تكون سيارة أوجدت سيارة، أي صنعت سيارة، لابد أن يكون الموجد غير هذا الذي نشاهده من الموجودات، ولابد أن ينتهي العقل إلى شيء يقتنع به، لأنه لو قيل مثلاً: هذا المخلوق أوجده مخلوق أكبر منه، فذلك المخلوق من أوجده؟

أوجده مخلوق آخر ثم تتسلسل الأمور إلى ما لا نهاية وكل هذا باطل، ودليل على البطلان.

فلابد أن تنتهي المسألة عند خالق عليم بصير قدير بيده ملكوت كل شيء، هذا من الآيات التي يدركها العقلاء كلهم بالمشاهدة والنظر، وهي كافية في وجوب عبادة الله جل وعلا.

ثم كذلك من الآيات إجابة الدعاء، كل إنسان جرب هذا وكل مخلوق سواء كان مؤمناً أو كافراً، لأنه لابد أن يضطر، تضطره الحياة إلى أمر يقع فيه فيتجه إلى من يعلم أنه ينجيه من هذا الكرب ومن هذا الأمر فيجاب بالفرج بعد الالتجاء والصدق، ولهذا جعل الله جل وعلا ذلك دليلاً على وجوب عبادته كما قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، مَن؟ الله جل وعلا، هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، حتى إن البهائم إذا وقعت في شدة وكرب ترفع رؤوسها إلى ربها جل وعلا تستغيث به، حتى الحيوانات جعل الله جل وعلا فيها الإحساس والإدراك لذلك.

وقد قص الله جل وعلا علينا أشياء فيها عبر ما ذكره عن نبيه سليمان عليه السلام، أنه لما أتى على وادي النمل وقد أعطى منطق الحيوانات ومنطق الطير، سمع نملة تحذر قومها وأصحابها تقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، لأنكم لستم عنده شيء، لا يراكم، هذا من آيات الله جل وعلا، في مستدرك الحاكم وغيره أن النبي ﷺ ذكر نبياً خرج بقومه ليستسقي بهم فوجد نملة مستلقية على ظهرها ورافعة قوامها إلى السماء وتقول: اللهم إنّا خلق من خلقك فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم(١).

وفي الحديث أيضاً عنه ﷺ أن الحبارى تلعن عصاة بني آدم إذا تأخر القطر، تقول: منعنا القطر بسببكم، ويقول ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»: حدثني الثقة يقول أنه شاهد نملة تحاول أن تحمل حبة كبيرة فما استطاعت، فذهبت وجاءت بجماعة من النمل تستعين بهم، فلما وصلت إلى المكان الذي فيه الحبة رفعت الحبة، فدارت ودرن، فلم

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهد»، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي.

وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم ص(٣٢١، ٣٢٨).

يجدن شيئاً فانصرفن، فوضعت الحبة وجاءت النملة التي كانت تحاول فحاولت مرة أخرى فما استطاعت، فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما أقبلن رفعتها، فدارت ودرن في المكان فلم يجدنها فانصرفن، فوضعتها فجاءت تحاول فما استطاعت فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما وصلن إلى المكان رفعتها ثالثة، فدارت ودرن في المكان فلم يجدنها، فتقابلن عليها فقطعنها، لأنها كذبت عليهن ثلاث مرات.

وفي تاريخ البخاري عن عمرو بن ميمون أنه رأى قردة زنت فاجتمعن عليها القرود فرجمنها ورجمتها معهم في الجاهلية[(١)]، وإذا نظر الإنسان في الحيوانات والطيور كيف جبلها الله جل وعلا على مصالحها، كيف إذا أحست الطيور قبل أن تقترب تبدأ، تجمع العش وتهيئة ثم يهيئن مكاناً للبيضة ثم يعكفن عليها حتى تفقس ثم يقمن بتربيتها وجلب الماء والطعام لها إلى أن تصل إلى الطيران ثم بعد ذلك لو رأينها تطلب منهن شيئاً قاتلنها، يأمرنها بالذهاب لطلب الرزق، فكل هذا ليس من عقل فيها، وإنما هو أمر جبلها الله جل وعلا عليه إذا نظر الإنسان إليها علم أن لها خالقاً خلقها ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

جل وعلا هداها لمصالحها، في مصالح حياتها، وأما الهداية التي فيها عبادته فهذه لمن كلفه الله جل وعلا بعبادته من الجن والإنس، وأما هذه فهي هداية لحياتها وهي من مصالح بني آدم، ولهذا يقول القائل:

(١) «البخاري» (٣٨٤٩) كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، من طريق نعيم بن حماد، قال: حدثنا هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون.

وفـي كـل شـيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه واحـد

جل وعلا، في كل شيء آيات، والله جل وعلا يقول: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، هل يمكن أن يكون مخلوق خلق من غير خالق؟

هذا مستحيل، وهل يمكن أن يكون المخلوق خَلق نفسه؟

هذا لا يمكن، فهو مستحيل، إذاً لابد أن يكون له خالق، وهذا الخالق قد ظهرت آياته جل وعلا وبانت، فهو الذي يجب أن يعبد، فهذا أصل يجب أن يُعلم ولا يجوز للإنسان أن يكون جاهلاً لذلك؛ لأنه يكون مستحقاً لعقاب الله جل وعلا، فإذا كان الله خلقنا فمن المستحيل أن يتركنا بلا أمر أو نهي؛ لأن الله خلقنا لعبادته، والأمر والنهي لا يكون لنا مباشرة من ربنا جل وعلا وإنما يكون من طريق الرسول ﷺ، فهذه أصول ثلاثة يعرف الإنسان بها ربه الذي يجب أن يعبده، ويعبده بأمره ونهيه، وأمره ونهيه طريق التعرف عليها عن الرسول ﷺ، ولهذا قال: «بل أرسل إلينا رسولا»، وهذا ليس خاصاً بنا، كل أمة لها رسول، والمسلم يجب عليه أن يؤمن برسل الله جميعاً، ولكن من باب الاختصار أنه يؤمن برسوله على سبيل الإجمال والتفصيل، على سبيل التفصيل برسوله الذي كلف به، يعرف الأوامر التي جاء بها والنواهي التي كلف باجتنابها، ويؤمن برسل الله فيعلم أنهم أرسلوا إلى أمم وأنهم جاؤوا بالهدى ودين الحق، ورسل الله الذين قصهم الله علينا في القرآن في كل قصص أنهم جاؤوا بهذا، أي بوجوب عبادة الله جل وعلا وأن يخلص له الدين، أن يخلصوا له العبادة، وأن من اتبعهم وأطاعهم سلم من عذاب الله ونجى

في الدنيا ووعد في الآخرة الجزاء العظيم الذي يسعد فيه أبد الآبدين وإذا عصى فإنه يعاقب في الدنيا ثم يصير بعد ذلك إلى جهنم، فقص علينا قصة أبوينا لما خلق آدم من تراب وعلمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته، أمرهم أن يسجدوا له ثم أسكنه الجنة وخلق زوجه منه، نام نومة فاستيقظ وهي عنده، أباح الجنة إلا شجرة واحدة، قال: هذه الشجرة لا تقرباها وحذرهما من الشيطان، ولكن أمر الله الذي قضاه لابد منه، وقص علينا قصة نوح مع قومه كيف أهلكوا ولماذا، لأنهم عبدوا غير الله ثم قص علينا قصة هود مع قومه ثم قصة صالح مع قومه ثم قصة شعيب وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل، والرسل الذين جاؤوا في القرآن خمس وعشرون رسولاً ذكرهم الله جل وعلا بقصصهم وأخبر أنهم جاؤوا بالهدى إلى قومهم، وقد قال بعض العلماء أنه يجب على المسلم أن يعرف الرسل الذين جاؤوا في القرآن؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. هذه من الأصول، لابد من الإيمان بالرسل كما أنه لابد من الإيمان بالملائكة كما سيأتي.

* * *

فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ.

الشرح:

أطاعه: اتبع ما جاء به؛ لأن هذا أمر الله، أمرنا أن نفعله، وهذا نهيه نهانا أن نقترفه، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، وليس الأمر مطلق هكذا، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، قال لنا: اعبدوا الله ولا

تشركوا به شيئاً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان وحجوا البيت، هذه الأوامر.

أما النواهي فحرم علينا محرمات معينة عينها، وما سكت عنه ولم يعينه فهو مباح عفواً عفا الله عنه، فالأمر واضح ليس فيه خفاء، ثم النواهي التي نهانا عنها لا مصلحة لنا فيها لا يترتب عليها حياة ولا نفع بل إنما يسولها الشيطان وتزينها النفوس، يعني أن المصلحة في الأوامر التي نفعلها أما النواهي فالمصلحة في اجتنابها، ولهذا صار النهي آكد من الأمر، كما في صحيح مسلم «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»(١)؛ لأن هذا سهل، مجرد الترك، ترك واجتناب فلا تترتب عليه حياة ولا مصلحة، والمقصود أن طاعة الرسول ﷺ فيما أوجبه الله جل وعلا علينا. الذي جاء به. وما حرمه علينا، أما وراء ذلك من الأمور المستحبات وترك الأمور المكروهات فهذا فضل، إذا فعله الإنسان يتحصل على خير وترتفع به درجات، ولهذا جعل الله جل وعلا أهل السعادة ثلاثة أقسام كما قال الله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

الظالم لنفسه هو الذي قصَّر في الواجبات، ترك بعضها وارتكب

---

(١) «البخاري» (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، و«مسلم» (٢٣٥٧) كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه وتوقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في «إرواء الغليل».

بعض المحرمات، ولكن الأصول معه، أصل الدين وأصل التوحيد معه لم يعمل الشرك ولم يجحد واجبات الله ولم يحل محارم الله بل ارتكب ذنوباً واعترف بأنه مذنب فيموت على هذا، معه التوحيد ولكنه معه ذنوب بترك واجبات وارتكاب محرمات وهو معترفٌ أنه مقصّر وأنه مذنب، فهذا من السعداء وإن أصابه ما أصابه، إذا عاقبه الله جل وعلا على ترك الواجب أو فعل المحرم، فإنه يكون عقاباً مؤقت، إما في القبر فقط، فإن لم يفي ذلك يكون في الموقف من الكرب والشدة؛ لأن كرب الموقف يتفاوت تفاوتاً عظيماً، وإن لم يكفي ذلك يكون في النار، يوضع في النار قدر جرمه ثم بعد ذلك يخرج فيكون من أهل الجنة أبداً خالداً مخلداً فيها.

أما المقتصد فهو الذي اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم، هذا إذا اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم فإنه لا يناله عذاب، فهو من السعداء ولكن من عباد الله من هو أرفع منه درجة وهم السابقون بالخيرات؛ الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض ويتقربون إليه بترك المكروهات بعد ترك المحرمات، هؤلاء هم الذين يسبقون إلى الدرجات العلى، وهم أيضاً يتفاوتون، فالمقصود أن هذا طاعة الرسول الذي جاء به، أمر واضح ليس فيه خفاء، فمن أطاعه في الجملة دخل الجنة؛ لأنه عَبَدَ الله ولم يشرك به شيئاً وإن ترك بعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات فهو في الجنة مآله إليها، أما إذا لم يطعه وعصاه فمثل هذا يقال أنه كافر؛ لأنه رد قول الرسول ﷺ إما جحداً وإنكاراً وإما عناداً وتكبراً.

أما الطائع والمرتكب المحرم فهذا لا يقال أنه كافر ولا معاند بل سوَّلت له نفسه وزيَّن له الشيطان فوقع في المحرم وترك بعض ما وجب عليه وأمره إلى ربه جل وعلا، إن شاء عفا عنه وإن شاء أخذه بعدما يعاقبه بما يستحق يكرمه بأن يدخله الجنة.

* * *

وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ،

الشرح:

وقوله: «من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار»(١). يعني أن المصير بعد الموت إما إلى الجنة أو إلى النار، فهذا من الفروع التي يجب أن يؤمن بها، فروع هذه المسألة، أن الله خلقنا وتَعَبَّدَنا، من واجباتها، أن يعلم بالجزاء، والجزاء يكون بعد الموت مباشرةً، ثم يتصل هذا ببعث الأبدان وتركيبها مع الأرواح تركيباً لا يقبل المفارقة أبداً، فيتم الجزاء هناك فيكون إما في الجنة وإما في النار، أما أوله فيكون بعد الموت مباشرة، وهو نعيم القبر أو عذابه، هذا من الجزاء، جزاء الآخرة، ولكنه أمر من الأمور الآخرة، ولهذا الإنسان إذا مات قامت قيامته، قامت ساعته، والساعة قسمان: ساعة كبرى تعم الخلق كلهم وهي النفخ في الصور، وساعة خاصة لكل إنسان إذا مات قامت قيامته.

* * *

---

(١) «البخاري» (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، و«أحمد» (٨٣٧٣) «باقي مسند المكثرين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في «المشكاة».

وَالدَّلِيْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الشرح:

هذا فرد من أفراد الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الله جل وعلا كلَّفنا وتَعَبَّدَنا، وتكليفه لنا بواسطة الرسول ﷺ، والإرسال معناه أن يكلف بإبلاغ أمر الله جل وعلا، وأمر الله هو الرسالة، أمره ونهيه والرسالة كما هو معلوم، فالرسول ﷺ رجل حر مكلف أكرمه الله جل وعلا بخطابه بوحيه إليه وكلفه بإبلاغه العباد، وسيأتي كيفية معرفة الرسول، كيف نعرفه.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥]،

وقوله: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥]، يعني أن الرسول يشهد علينا بأنه بلغنا، وهذا يكون يوم القيامة، يشهد أمام الله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، لابدَّ من سؤال الرسل وسؤال المرسل إليهم، هل جاءكم الرسول؟ هل بلغكم؟ هكذا يسألون، إن أنكروا ماذا يقال؟ يُسأل الرسول: هل بلغتهم؟

فرسول الله ﷺ شاهد علينا، يشهد علينا والله جعله علينا شاهداً، كما ذكر الله جل وعلا في آيات متعددة، أنه يأتي أمام الله جل وعلا ويقول: إني بلَّغتهم، وكان ﷺ في المواقف التي تكون له في اجتماع الناس يستنطقهم ويسألهم هل بلَّغتكم؟

فإذا قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.. اللهم اشهد. قال هذا يوم عرفة، وقاله في غير عرفة، وقاله في كل مناسبة، قاله إذا بلغ واجباً وإذا نهى عن محرم، كما أنه لما نهى عن الغلول قال: **«لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رأسه بعير له رغاء يقول يا رسول الله أنقذني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك»**[1] ثم ذكر بقية الأموال، فالرسول يكون شاهداً علينا، أما شهادته على من شاهدهم وعايشهم فهو يشهد عليهم بأنهم تبلغوا حيث وصل إليهم أمره ونهيه، وإن شهادته على بقية الأمة فلأنه نشر ذلك وبلّغ أصحابه وكلف أصحابه أن يبلغوا من بعدهم، والذين بعدهم يبلغون من بعدهم إلى يوم القيامة، وهذا الذي يقول الشيخ أنه يجب علينا العلم والدعوة يعني التبليغ الذي كلفنا به، هذا في العموم وقد يكون في الخصوص كما سبق، وقد ذكر الله جل وعلا في القرآن أن الرسل شهداء على قومهم كل رسول يكون شهيداً على قومه وجاء تفصيل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ، حتى أنه لما ذكر أنّا نكون شهداء على الناس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهذه الأمة تشهد للرسل بأنهم بلّغوا والرسول ﷺ يشهد علينا بأنه بلّغنا، وشهادتهم للرسل لِمَا تبلغوه من كتاب الله الذي جاء به رسول الله ﷺ وقص عليهم قصص الرسل، بأن نوح دعا قومه بالبينات وجاءهم بالهدى فكذبوه، فيشهدون أنه بلغ قومه،

---

(١) «البخاري» (٣٠٧٣) كتاب الجهاد والسير، باب الغلول وقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ومسلم (١٨٣١) كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في «المشكاة».

وكذلك هو وصالح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل الذين جاؤوا بالرسالات، هذه الأمة تشهد لهم لأنها تبلَّغت ذلك مما جاء به رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]. كثيراً ما يقرِن الله جل وعلا بين رسولنا ﷺ وبين موسى، وكثيراً ما يردد عليه قصة موسى؛ لأن موسى عليه السلام شبيه بمحمد ﷺ في دعوته وفي مزاولته الناس، وفي العذاب الذي أوذي به، وفي البينات التي جاء بها، ولهذا لما قال له الرجل الذي جاء ونصب نفسه ناصحاً لرسول الله ﷺ ـ للغرور والشيطان ـ قال له: اعدل فإنك لم تعدل. قال: «**ويلك لقد هلكت إن لم أعدل فمن يعدل؟**» وقال: «**يأمنني الله جل وعلا ولا تأمنونني على المال. قال: رحم الله موسى، لقد أوذي أكثر مما أوذيت فصبر**»، وهذا هو سر قرن قصته بقصته وكتابه بالكتاب الذي جاء به الرسول ﷺ حتى يتسلى بذلك ويكون له فيه معتبر.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦]. هذا تمثيل، وإلا فرسولنا أرسل إلينا كما أرسل لسائر الأمم والرسالة واحدة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ أن الرسل دينهم واحد، وقال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فكل رسول جاء بالإسلام.

* * *

الثَّانِيَـةُ:

أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

الشرح:

تقدم أن الشيخ رحمه الله ذكر أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل، والعمل بهن، وذكر أنها العلم، والدعوة إلى العلم، وكذلك العمل بالعلم، والصبر على الأذى فيه، هذه مقدمة في الأصول، وهي داخلة في الأصول، وكذلك الثلاث المسائل التي ذكرها، تعود إلى مسألة واحدة وهي وجوب عبادة الله، وحقوق العبادة ولوازمها، فمن عبد الله وجب عليه أن يترك الشرك؛ لأن العبادة ما تصلح إلا بترك الشرك مطلقاً، ولا يمكن أن توجد عبادة إلا بترك الشرك، ثم لا يمكن أن تكون عبادة بموافقة الأمر واجتناب النهي إلا بمعاداة المشركين، ولابد لأن من يدعي أنه يحب الله ثم يوالي المشركين فهو كاذب لا يمكن أن يجتمع هذا أبداً، فهو أمر من لوازم العبادة.

أما الإخلاص الذي عبر عنه بأنه ملة إبراهيم فهذا أصل العبادة: لابد أن تكون بالإخلاص والمقصود أن المسائل الثلاث هذه تؤول إلى شيء واحد وهو وجوب عبادة الله جل وعلا، الأولى أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، معنى ذلك أن الحجة قامت علينا، ومعناه أننا خُلقنا ودلائل الخلق قائمة بأنفسنا وبالشيء الذي يدور حولنا من آيات الله الفعلية وآياته القولية التي يرسل بها الرسل وآياته الخلقية في الأنفس وفي الآفاق، فهي دلائل قائمة توجب أن يكون المعبود هو الله حقاً وألا يعبد إلا هو، ولكن العبادة لا تكون إلا بما جاء به الرسول ﷺ ولهذا قال «**لم يتركنا هملاً**» يعني أنه أمرنا ونهانا عن أشياء معينة، وفعل هذه المأمورات واجتناب المحظورات هو التكليف بالعبادة التي تعبدنا

الله جل وعلا بها.

أما الثانية وهي قوله: «أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل» يعني أن العبادة يجب أن تكون لله، والشرك هو السهم في الشيء، إذا كان هناك شيء معين وصار فيه شركاء فلكل واحد سهم منه، فالعبادة لا تجعل أسهم، ما يجعل سهم منها لله وسهم منها للنبي وسهم للملك وسهم للولي، يعني نصيب، يجب أن تكون العبادة كلها لله خالصة، والشرك الذي يقع من الإنسان على نوعين كما هو معلوم، نوع أكبر يجعل الذي يفعله إذا مات عليه خالداً في النار ميؤوساً منه بأن يناله رحمة من الله، هذا إذا مات على الشرك، لقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن المشرك إذا مات مشركاً أنه خالد في النار، مهما كان وإن كان عابداً وإن كان يصلي ويصوم، فإن مات مشركاً وإن كان عنده صلاة وصوم فهي لا تنفعه.

والنوع الثاني: شرك أصغر، هو كثير، يقع من الناس كثيراً، ويقصد به حب النفس في الواقع، كون الإنسان يحب نفسه، فيعمل أعمالاً يظهرها للناس حتى يثنوا عليه بها، حتى يمدحوه، حتى يحبوه، ويكون ذلك من حظ نفسه، فهو يعبد نفسه، أو أنه يعمل أعمالاً من أمور الطاعات ويقصد

بها أمور الدنيا، يتحصل على شيء من أمور الدنيا، وهذا يختلف باختلاف ما يقوم في قلب الإنسان، قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، ولكن الأصغر جاء أنه يسير الرياء يعني قليل الرياء والحلف بغير الله، وقول العبد: لولا الله وأنت، لولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي فيها الاعتراض على القدر وعلى تدبير الله جل وعلا وإحكامه وإتقانه وتصرفه، فإن هذا نوع من الشرك اللفظي وهو من الشرك الأصغر الذي لا يُخرج الإنسان من الدين الإسلامي، ولكنه مع كونه أصغر هو من أكبر الكبائر ومن أعظم الكبائر نسأل الله العافية، والعبادة التي أوجبها الله لا تكون إلا بالإخلاص، والإخلاص معناه أن يكون العمل خالصاً لله جل وعلا ليس به شيء من الرياء والشرك والشوائب التي تنقصه.

وقوله: «إن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل» هذا تفسير للعبادة؛ لأن العبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت هكذا، إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا، أما العبادة في اللغة فهي مأخوذة من الذل والخضوع، قال: ذل إذا عبد، ولهذا يقال: طريق معبد، إذا ذل لوطء الأقدام وصار مسلوكاً واضحاً معبد، فهو مأخوذ من الذل والسكون والخضوع والعبادة مأخوذة من هذا، وهذه تحصل لله جل وعلا، وتحصل لغيره والعبادة بهذا المعنى تكون لله وتكون للمخلوقات، ولكن العبادة الشرعية هي أن تكون خالصة لله جل وعلا وليس فيها شيء لغيره.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

الشرح:

يعني هذا فرد، وإلا القرآن كله أدلة على هذا الأصل العظيم، كله من أوله إلى آخره، أوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. هذا دليل على وجوب العبادة لله جل وعلا، لأن الحمد أعظمه العبادة، أعظم الحمد أن تعبده بها عبادة، فيجب أن تكون لله رب العالمين، والسورة كلها في العبادة، إما عبادة الربوبية وإما عبادة الأسماء والصفات، عبادته بأسمائه وصفاته كقول الرحمن الرحيم، أو عبادته بالمعاملة التي تجري من العبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فكذلك سور القرآن كلها في التوحيد وفي ذكر الجزاء عليه وذكر جزاء من ترك التوحيد وعقابه وذكر ما قصَّه الله جل وعلا مما فعل بأهل التوحيد أو أهل الشرك منذ أرسل أول رسول نوح إلى أن ختمت الرسل بمحمد ﷺ.

فالواقع أن القرآن كله في التوحيد، ولكن هنا يقول في هذه الآية أنها واضحة ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَأَنَّ﴾ الواو عاطفة على ما سبق وهي قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ [الجن: ١]، الصورة عطفت على هذا، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، يعني أوحي إليَّ أن المساجد لله، والوحي أمر، والمساجد إما أن تكون مواضع السجود الأماكن التي بنيت للسجود فيها، والصلاة تكون لله يجب أن تكون محلاً للعبادة الخالصة لله جل وعلا، وألا يكون فيها شيء لغير ذلك، أو أن تكون المساجد أعضاء السجود، يعني أنها لله، يجب أن تكون خالصة لله وألا يكون سجود العبد لأحد من الخلق أو لشيء من الخلق.

﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ [الجن: ١٨]. الدعاء هنا يقصد به دعاء العبادة وهو غالب ما في القرآن؛ لأن الدعاء ينقسم في القرآن إلى قسمين: دعاء يسمى دعاء المسألة وهو السؤال لشيء معين كقول الإنسان: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، هذا دعاء مسألة، ودعاء عبادة قوله جل علا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وكقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. هذه فسرت بدعاء العبادة وفسرت بدعاء المسألة، وكل دعاء وعبادة يتضمن المسألة وكذلك المسألة تتضمن الذل والخضوع والحاجة وهي عبادة؛ لأن العابد يعبد حتى يتحصل على ما ينفعه من المعبود ويدفع بعبادته ما يضره ويخافه ويرهبه من المعبود الذي يملك ذلك، ولابد أن يكون المعبود مالكاً للمرجو ومالكاً لدفع المرهوب المَخوف وإلا تكون عبادته ضلال كما بيَّن الله جل وعلا للمشركين أن عبادتهم ضلال ولا تجدي شيئاً.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، نكرة جاءت في سياق النهي تكون عامة، فلهذا شملت الخلق كله، فلا يجوز أن يُدعا غير الله جل وعلا، فهذا من خصائص الله، ومعنى ذلك أن الله خلق العباد وألزمهم بحقه وحقه العبادة، فيجب أن تكون خالصة له، فإن قُدر أن أحداً منهم يجعل من العبادة شيئاً لغيره فهو الشرك الذي أخبر الله جل وعلا أنه لا يغفره.

* * *

أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛

الشرح:

هذه المسألة من لوازم العبادة لازمة للمسألة الأولى، وليست مسألة مستقلة تكون أصلاً حتى نقول مثلاً: الأصل الأول: عبادة الله، والأصل الثاني: عدم الشرك، والأصل الثالث: عدم موالاة الكفار.

نقول: هذه المسائل الثلاث كلها تؤول إلى شيء واحد وهو عبادة الله وحده، وأن يعبد وحده، ولا توجد عبادة الله إلا بترك الشرك، ولا يمكن أن تكون العبادة عبادة صحيحة إلا بمعاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. هل بقي في هذا للخلق شيء؟

الآية ما تركت شيئاً أبداً للخلق، وأصبح الأمر كله بيد الله جل وعلا، فإن أعطي أحد من الخلق شيئاً فهو منة من الله وفضل، وسوف يُنزع منه ويعطى غيره ما يستقر عنده والمال الذي يكتسبه الإنسان بكده وكدحه وعمله فضل من الله ونعمة؛ لأن الله قوّاه ويسر له الأسباب ثم بعد ذلك سوف يتركه للوارث وربما كله من يستعين به على معصية الله ولا يحمد جامعه له والمقصود أنه يسلب ما أعطي؛ لأن الأمر كله لله ويرجع إلى الله جل وعلا.

ثم قال بعد ذلك: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فدلّت الآية على أن هذا

من تمام عبادة الله ومن لوازمها، لازم عبادة الله ألا يتخذ العابد الكافر ولياً له، والموالاة معناها المحبة والنصح، إبداء النصيحة والموافقة وكون الإنسان يبقى معه، أما إذا جاءت المناصرة، النصرة، فهذا يسمى تولي، وهذا هو الذي قال فيه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. يعني فهو كافر مثلهم، والتولي هو الذي تكون فيه المناصرة بأن يناصرون إما بالمال أو بالسلاح أو بالنفس وهذه كفر بالله جل وعلا، إذا كان الفاعل لذلك مسلماً فقد ارتد عن الإسلام ـ نسأل الله العافية ـ؛ لقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله: «ولو كان أقرب قريب» يعني لو كان هذا الذي يتوله وهو كافر ابنه أو أبوه، هذا هو أقرب القريب الابن والأب، لو كان أبوه أو ابنه يتوله مع كفره فإنه يكون محاداً لله ورسوله ومنفيٌّ عنه الإيمان، ليس بمؤمن.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

ومعنى قوله: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يعني لا يوجد أي لا يوجد من يؤمن بالله ويواد المشركين ومن حاد الله ورسوله، يعني أن الإيمان لا يجتمع في قلب إنسان مع موالاة الكفار.

* * *

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [المجادلة: ٢٢] إشارة أنهم لا نصيب لهم في اليوم الآخر؛ لأنهم لم يعدوا شيئاً له، وقد فُقِد الاستعداد له بكونهم والوا الكفار، ولابد أن يكون في ذلك معاداة للمؤمنين؛ لأن موالاة الكفار تقتضي معاداة المؤمنين، فتنعكس القضية تماماً، وهذه هي المحادة.

محادة الله هي أن يكون الله في حد والمحاد له في حد، وحقيقة المحادة أن الله يأمر بهذا وينهى عن هذا، والمحاد يفعل المنهي عنه ويترك المأمور به، أي أنه يكون غير موافق لله جل وعلا فيما يأمر به ولا فيما ينهى عنه، فهذا يكون محاداً لله، وإذا أظهر ذلك وجب على المؤمنين معاداته، ولو كان أقرب قريب، ولو كان أباه أو أمه، بدليل الآية هذه.

وقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]. كلمة ﴿أَوۡ﴾ هنا للتنويع، وبدء بالآباء للقرب ثم الأدنى، وهؤلاء هم أقرب شيء للإنسان، وقد يكون الأب يحب الابن أكثر محبة من أبيه ومع ذلك جعل هذا مع هذا لأجل أن يتبين أنه لا يحصل الإيمان إلا بالتبري من الكافر وإن كان أباً للإنسان أو ابنه وأنه لا عذر له في تولي من كان كافراً لكونه من أقربائه، أما الأخوان والعشيرة فهم أبعد من ذلك ومع ذلك نص عليهم ليبين أن الأمر شديد في هذا.

* * *

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [المجادلة: ٢٢] هذه إشارة إلى الصحابة الذين حصل منهم

في بدر خلاف ما ذكر هنا، منهم من قتل أباه وقريبه؛ لأنه كان كافراً، فأشير لهؤلاء المؤمنين الذين قتلوا أقربائهم يوم بدر؛ لأنهم على الكفر، وهذا من أعظم المعاداة كونه يقتله إمعاناً في معاداته وكذلك اتباعاً لطاعة الله جل وعلا ومرضاته.

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] يعني الصحابة الذين قتلوا أقربائهم.

* * *

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

الروح هنا أكثر من كونه النصر، ليس النصر فقط بل الروح الذي يكون من الله أوله الإيمان الذي يثبت في القلب ولا يتزعزع، ويقدم على قتل أبيه وابنه وأخيه إذا كان كافراً طاعةً لله جل وعلا، هذا الذي تحلى به الصحابة ولهذا الإشارة إليهم في هذا، وليست في هذه القصة فقط بل في جميع أوقاتهم وحالاتهم كانت هذه صفتهم، في بعض المغازي كان مع الرسول ﷺ منافقون منهم عبدالله بن أُبي بن أبي سلول في غزوة المريسيع، فنزلوا في مكان كان فيه ماء قليل فذهب غلمان من الصحابة من المهاجرين ومن الأنصار ليستقوا، فتزاحموا على الماء، فقال المهاجرين: يا للمهاجرين، وقال ذاك: يا للأنصار، فسمع ذلك عبدالله بن أبي فقال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كقول القائل: سمن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويقصد بالأعز نفسه

وقبيله، ويقصد الأذل رسول الله ﷺ(١).

وصار يقول لأصحابه: ألم أقل لكم لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا ويرجعوا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ أمر بالرحيل وكانت عادته هكذا، إذا حصل شجار أو نزاع لا يستقر حتى لا يتمادى هذا الشيء، هذا من العلاج الذي كان يصنعه ﷺ ويفعله، لا يريد أن تنتشر الفتن، يريد أن يقلل الفساد مهما كان وبأي وسيلة وطريقة، وبعد ذلك نزل القرآن، وكان ابنه اسمه عبدالله وهو من خيار الصحابة وأفاضلهم، فسمع أن الرسول ﷺ سيقتل عبدالله بن أُبي، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هل تقتل أبي؟ قال: «**لا، ومن قال ذاك**»؟ قال: إذا كنت تريد أن تقتله فمرني فأقتله، إني أخشى أن يقتله رجل من المسلمين فلا أصبر وأخشى أن أقتله فأكون من أهل النار، قال: «**لا، ولكن نحسن صحبته**»(٢)، فلما قربوا إلى المدينة ذهب الابن عبدالله واخترط سيفه ووقف لأبيه وقال: والله ما تدخلها حتى تشهد على نفسك أنك أنت الأذل وأن رسول الله ﷺ هو الأعز، فشهد لما رأى السيف.

المقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] بإخلاص وصدق وثبات على الحق ومحبةً للحق وبغضاً وكراهة للباطل وثباتاً على ذلك، وهذا هو الروح الذي يكون من الله جل وعلا للعبد فهم المقصودون في هذه الآية:

---

(١) البخاري (٣٢٥٧)، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، مسلم (٤٦٨٢) كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) ذكره البيهقي في «دلائل النبوة».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].
ثم ذكر ما يجزيهم به في الآخرة.

* * *

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

الجنة هي البستان الذي تغطَّت أرضه بالأشجار والزرع وفيه الأنهار؛ لأنه من الاجتنان وهو الستر، سترت أرضها بالأشجار والزروع، وكل أرض سترت بالزرع والشجر تسمى جنة، وإذا كانت الأنهار تجري من تحتها فهذا زيادة وصف وخير، والجنة التي وعدها الله جل وعلا المؤمنين لا أحد يعرف عنها شيئاً مشاهدة إلا ما كان لبعض ملائكة الله تعالى وللنبي ﷺ فقط أطلعه الله تعالى على بعض ذلك، وإنما يعرف عنها بالخبر، والخبر ليس كالمعاينة؛ لأنه ليس عندنا شيء من جنس الجنة التي وعدها المؤمنون حتى يمكن أن يعرفوها أو يعرفوا شيئاً من صفاتها معرفة حقيقية.

وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس عندكم في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[1]، يعني العنب والنخل والحور والأشجار والأنهار واللبن والخمر مجرد أسماء، أما الحقائق فلا، لا في المذاق ولا

---

(١) «تفسير ابن كثير» سورة البقرة، آية (٢٥)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٤٧٣): رواه البيهقي موقوفاً بسند جيد.

في المنظر ولا في المشموم ولا في غير ذلك، ولهذا أهل الجنة ما عندهم فضلات أبداً لا بول ولا غائط، الذي يأكلونه يذهب رشحاً؛ لأنه ليس فيه فضلات، وذلك لطيبه وحسنه، ليس فيه شيء يكون فاسداً أبداً إنما هو غذاء كامل، والله جل وعلا يقول في آية ذكرها جزاء لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. فهنا ﴿نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧] يدخل فيها الملائكة والأنبياء وغيرهم، لا أحد يعلم ذلك إنما هي مخبأة لهم، ولما قام الرسول ﷺ يصلي صلاة الكسوف في مسجده ﷺ مثلت له الجنة والنار في نفس المسجد، فصار يتقدم فتقدموا خلفه؛ لأنه ما كان بجوار الحائط كان في وسط المسجد لقلة المصلين، فتقدم فتقدمت الصفوف خلفه، ثم تأخر وتقهقر وصارت الصفوف تتقهقر لا يعرفون ما السبب، ولما قضى الصلاة خطب خطبة معروفة وقال: **«لقد عرضت عليَّ الجنة والنار»** أو قال: **«لقد مثلت لي دون هذا الحائط فرأيت في النار عمرو بن لحي الخزاعي يجر قُصْبَهُ؛ لأنه أول مَن سيَّب السوائب وحمى الحامي وغيَّر دين إبراهيم، ورأيت فيها امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، رأيتها تخمش وجهها وهي في النار، وعرضت الجنة فلم أرى منظراً كاليوم قط، وقد هممت أن أتناول منها قطفاً لما رأيتموني تقدمت، ثم بدا لي ألا أفعل، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»** ـ والقطف عنقود عنب، ولو أخذه لبقت الأمة تأكل منه وهو باقي لا ينتهي؛ لأن الذي في الجنة لا يفنى ـ **وحينما رأيتموني**

تقهقرت خشيت منها حتى قلت: يا ربي وأنا فيهم، خشيت أن تأتي علينا»[١].

فالمقصود بقول الرسول ﷺ: «لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»، معنى ذلك أن هذا خلاف ما هو معهود.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري بلا أخدود[٢]. رواه الإمام أحمد، والأخدود الجوانب التي توضع لمنع الماء لئلا ينتشر، إما يعمله الماء أو تُعمل له.

* * *

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

والخلود هو الدوام الذي لا ينتهي ولا ينقطع، مع هذا النعيم خالدين فيها، فزادت تمام السعادة تمام الحياة، يعني أمنوا الموت وأمنوا الألم والعذاب وتنعموا، وبعده شيء أفضل من هذا وهو قوله: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

* * *

﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

هذا أعلى ما في الجنة كون الله رضي عنهم ورضوا عنه، أما رضاهم عنه فليس عجيباً؛ لأن الله هو ذو الفضل والإحسان بدأه وختم به، ففضله

---

(١) «البخاري» (٤٦٢٤) كتاب التفسير من سورة المائدة، باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، من حديث عائشة رضي الله عنها، و«مسلم» (٩٠٤) كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في الصلاة، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في «المصنف» وابن أبي حاتم في «التفسير».

على العبد لا يحصى، فتفضل بالإيمان بأن جعل العبد مؤمناً ثم تفضل بجزائه الجنة، ومعروف في مذهب أهل السُّنَّة ـ وهو الحق الذي دل عليه القرآن ـ أن التنعُّم في الجنة ليس بالأكل والشرب والمنكح والملتذات البدنية التي تؤكل وتحس، بل أعظمها الالتذاذ بالله جل وعلا ـ النظر إليه ـ هذا هو أعظم نعيم، ولهذا جاء قوله جل وعلا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦]، والزيادة تكون على الحسنى أفضل منها، والزيادة هي النظر إلى وجه الله جل وعلا[١].

ويقول جل وعلا في أعدائه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. يقول العلماء: أن الحجاب أشد من العذاب، فهو يقابل ما يحصل للمؤمنين من نظرهم إلى ربهم جل وعلا، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً، منهم من ينظر إلى ربه في أول النهار وآخره؛ لأن أهل الجنة ما عندهم ليل ونهار ولا شمس، ولكن مع ذلك يعرفون الليل والنهار، ولهذا جاء أن منهم من ينظر إلى ربه جل وعلا بكرة وعشياً وهذا هو أعلى أهل الجنة، ومنهم من ينظر إليه في كل جمعة مرة.

* * *

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

يعني أصحابه الذين ذكر أنه كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح

---

(١) صحيح ورواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بنحوه عن صهيب رضي الله عنه وهو مخرج في «ظلال الجنة». أهـ ألباني.

منه، وكل من عمل عملهم فإنه يكون له هذا الوعد الكريم إلى يوم القيامة.

❋ ❋ ❋

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

ولا يكون من حزب الله إلا إذا انحزب وتميز عن حزب الشيطان، أما إذا كانت الأمور متداخلة فإنه يكون فساد في الأرض عظيم كما قال جل وعلا لما ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. يعني لا يقع هذا منكم وذلك يعني معاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله تكن الفتنة والفساد الكبير العظيم إذا لم يحصل ذلك.

❋ ❋ ❋

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ،

الشرح:

الظاهر أن هذا ليس من كلام الشيخ لأنه غير مرتب، ويجوز أن يكون من جمع بعض تلامذته عندما كان يتكلم ويقرر المسألة، وهو دعاء للمخاطب الذي أمر بالعلم، وهي العادة إذا كانت المسألة تحتاج إلى فكر ونظر، فيقال: اعلم؛ حتى يتنبه السامع، ويعلم أن هذا يحتاج تركيز الذهن.

❋ ❋ ❋

أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ،

الشرح:

الحنيفية مأخوذة من الحنف وهو العدول والميل قصداً عن كل دين

إلى دين الله الذي أمر الله جل وعلا به وهو دين الرسل كلهم كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ومقصوده أن الإخلاص الذي هو خلوص العبادة لله هو الذي أمرنا وكلفنا به.

* * *

مُخْلِصاً له الدِّينَ.

الشرح:

والآيات التي جاءت في هذا كثيرة كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١-٣]. يعني إذا لم يكن الدين خالصاً فليس لله، فالله أغنى الشركاء عن الشرك، إذا جعل في العبادة شيء لغيره تركها لذلك الغير؛ لأنه غني كريم جل وعلا، فلابد أن يكون الدين خالصاً.

ثم قال بعد هذا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. ويقول جل وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]، فالإخلاص هو دين الله الذي لا يقبل إلا هو، وإذا لم يكن خالصاً فلا يخلو، إما أن يكون مردوداً أصلاً وإما أن يكون ناقصاً إذا شابه شيء من الرياء اليسير الذي لا يبطله، ولكن الأدلة تدل على أن العمل إذا شابته شائبة الرياء أنه مردود وأنه لا يقبل.

والإخلاص يكون بصدق النية وعزيمة القلب في العمل أن يكون لله وحده ولا يكون فيه شيء لغير الله جل وعلا، فيصبح الإنسان من ناحية في سره وعلانيته سواء، فلا يكون مع الناس يؤدي الأعمال بنشاط وإذا غاب

عنهم كسل، هذا لا يكون إخلاصاً، الإخلاص أن يكون في مغيبه مثله في محضره، فمن ناحية العبادة لا يتأثر بالناس ولا يؤثرون عليه ولا يبالي بهم؛ لأنه يعلم يقيناً أنهم لا ينفعونه ولا يضرونه وأنه لا يعمل لهم بل يعمل لربه جل وعلا، ولو مدح وأثني عليه ما زاده ذلك شيئاً؛ لأنه يعرف نفسه أكثر من غيره، ولو قدح فيه ما تأثر أيضاً بل ربما استأنس للقدح فيه؛ لأنه في الواقع يكتسب عملاً ليس من نفسه، وليس مقصده الظهور أمام الناس والترفع على عباد الله، مقصده أن يؤدي عملاً لله جل وعلا يكون راضياً عنه به.

ومع ذلك لا يجوز أن يزدري عباد الله ولا أن يترفع عليهم ولا أن يحتقرهم أو يتنقصهم بل يؤدي حق ربه وحق عباد الله عليه؛ لأن المؤمن له على أخيه حقوق، فالمقصود أن الإخلاص الذي قال أنه ملة إبراهيم هو دين نبينا محمد ﷺ الذي جاء به، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

* * *

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لهَا؛

الشرح:

يعني لهذه الملة الحنيفية.

* * *

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الشرح:

ومعنى هذا أنه خلقهم لتحصل منهم العبادة، يعني أنه أوجدهم

وأظهرهم من العدم إلى الوجود على هذه الصفة وأعطاهم ما يلزم لخلقهم وحياتهم وطلب أن تكون منهم العبادة، ووجه الأمر هنا للجن والإنس؛ لأنهم المكلفون العقلاء، وقُدم الجن على الإنس لقدمهم في الوجود، والله أعلم.

وقيل: لأن الجن غير مرئيين فاقتضى ذلك الإيمان بهم من الإنس حتى لا يُظن أنهم غير مكلفون، فهم مكلفين ومجازين كجزاء الإنس، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الشياطين ومنهم البررة، وهم ذرية إبليس.

المقصود أن هذه الآية أشكلت على كثير من المتكلمين إشكالاً عظيماً لم يتخلصوا منه حتى صار هذا الإشكال مربكاً مع أنها واضحة وظاهرة، ولكن إذا أراد الله جل وعلا أن يعمي قلب إنسان فإنه لا يملك له من دون الله شيء، ووجه الإشكال الذي استشكلوه أنهم يقولون في قوله جل وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] أنه أخبر بخلقهم للعبادة والواقع أن أكثرهم لا يعبد فأين صدق الخبر؟ هل خبر الله يتخلف؟ فبدأ الإشكال من هنا.

والجواب عن هذا أنه ليس المقصود الإخبار بعبادتهم كما أخبر بخلقهم وإنما المقصود أنه خلقهم وهيَّأهم للعبادة وأمرهم أن يعبدوه وأن تحصل العبادة منهم حتى يمكن أن يجزوا، أما لو كانوا مرغمين على العبادة كإرغامهم على الخلق فلا فائدة في جزائهم، ولهذا يقول علماء أهل السنة: أن هذه تدل على الحكمة من الخلق، أي أن الله خلق خلقه لحكمة وهي أمرهم بالعبادة، فيكون نظير هذه الآية قوله جل وعلا:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في تفسيرها: يعني لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يكلف بعبادة الله جل وعلا، فهو خُلق للأمر والنهي، والعبادة هي الأمر والنهي، وإذا جاء ذكر العبادة فالمقصود بها التوحيد؛ لأنه لا يقبل عبادة إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا.

* * *

وَمَعْنَى (يعبدون): يُوَحِّدُونِ،

الشرح:

هنا يريد أن يبيِّن أن العبادة هي التوحيد، وذلك يعني أن العبادة التي أمر الله جل وعلا بها شرعاً أن تكون خالصةً لله ليس فيها شيء لغيره، فإذا وقعت العبادة لله ومقصد آخر من مقاصد الدنيا ومرادات النفس فلا تكون عبادة شرعية وإن كانت عبادة في اللغة، والتوحيد هو أن يكون العمل واحداً لواحد، موحداً لله جل وعلا ليس فيه شركة لغيره وهو الإخلاص الذي أمر الله جل وعلا به.

* * *

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ،

الشرح:

يعني أنه آكد المأمورات وأعظمها، وضده كذلك أعظم ما نهى عنه وهو الشرك، ولا يمكن أن يوجد توحيد إلا باجتناب الشرك وهو أمر لازم، ولهذا يقول الله جل وعلا في الآية التي في سورة البقرة:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والله جل وعلا لا يقبل عملاً بدون التوحيد، فهو الأصل والأساس وهو دعوة الرسل، كل رسول يأتي إلى قومه يأمرهم بالإخلاص بأن يعبدوا الله وحده، كل نبي يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]. فلا يقبل العمل بدونه، ولهذا لما بعث الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له: **«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»**، وفي رواية: **«إلى أن يعبدوا الله»**، وفي رواية: **«إلى أن يوحدوا الله»**. ثم قال: **«فإن هم أجابوك على ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة»**[1]، فتبين بهذا أنه لا يصح أي عمل إلا من الموحد الذي يعبد الله وحده، وبهذا يتبين أن التوحيد هو أعظم المأمورات وهو الأساس الذي تبنى عليه الأعمال كلها، فإن صح صحت العبادة كلها وإن فسد فالأعمال كلها مردودة.

ومعنى الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً وإنابة، يعني تتعلق به محبة وعبادة وخشية، وهذا هو معنى لا إله إلا الله: أن يثبت العبد تألهه لله وحده وينفي العبادة عن كل ما سواه، ولابد من هذا الإثبات والنفي.

❋ ❋ ❋

---

(١) «البخاري» (٧٣٧٢) كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، و«مسلم» (٣١) كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام والصلاة والصدقة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ذكره الألباني في «إرواء الغليل».

وَهُوَ: إِفْرَادُ الله بِالْعِبَادَةِ.

الشرح:

إفراده بالعبادة يعني أن تكون العبادة خالصة له ليس فيها اشتراك لغيره بأن يكون فرداً واحداً، والتوحيد أخذ من هذا، أن يوحد العمل ويوحد من له العمل كما يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فلواحدٍ كن واحداً في واحدٍ أعنـي طريـق الحق والإيمان

قوله: «كن واحد» يعني عبداً، «لواحدٍ» يعني: لله جل وعلا، لا تكن موزع العبودية بين الخلق والخالق، بل كن عبداً لمن تَعَبَّدَكَ الذي هو الله. وقوله: «في واحدٍ» يعني في طريق واحد الذي هو سنة الرسول ﷺ وهديه الذي جاء به، ولهذا قال: «أعني طريق الحق والإيمان»، قوله: «أعني» يعود على واحد، والمقصود أن هذا أمر لابد منه وهو دعوة الرسول ﷺ ودعوة إخوانه من الرسل قبله، وقد وضَّحه الرسول ﷺ غاية الإيضاح ولم يترك شيئاً فيه مشكلاً أو ملتبساً صلوات الله وسلامه عليه، فلا عذر لمن جنح عن هذا الطريق أو حاد عنه وذلك لبيانه ووضوحه وإقامة الحجة، ومن جانب ذلك فهو من تقصيره، فيجب على العبد أن يطلب ذلك و يجتهد فيه.

* * *

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّركُ،

الشرح:

وقوله: «أعظم ما أمر الله به وأعظم ما نهى عنه»؛ ليبين أنه يجب على

العبد أن يهتم بذلك حتى لا يكون ضالاً أو ملتبساً عليه الأمر، ومعلوم أن رأس مال الإنسان حياته الدنيا، فإذا اهتدى بها تحصل السعادة وإذا ضل فيها ثم حضره الموت وعنده من المخالفات أو من الشرك ما عنده وتبين له ذلك وندم فلا يتمكن من العودة ولا يتمكن من الاستدراك فيكون خاسراً نفسه وأهله كما أخبر الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]. فيخسرون أهليهم الذين أعدهم الله جل وعلا له في الجنة وليس أهليهم الذين هم أولاده وزوجته وأبوه وأمه فهؤلاء كل واحد منهم له عمل وكل واحد منهم يفر من الآخر كما قال الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. يعني مهتم بنفسه وبعمله خوفاً من أن يهلك، وإنما أهله الذين يخسرهم أهله الذين في الجنة؛ لأن كل واحد من الناس له مسكن في الجنة ومسكن في النار، فإذا كان من أهل النار ورثه أهل الجنة وإن كان من أهل الجنة يعطى مسكنه الذي في النار لكافر من الكفار ويقال: هذا فكاكك من النار(١).

والمقصود أنه يجب على العبد أن يهتم بأعظم ما أمر الله به فيعمل به، يعلم أن أول ما يؤمر به الإنسان هو العلم ثم العمل يتبعه، كذلك يهتم بأعظم ما نهى الله عنه وهو الشرك ويعرف بما جاء الرسول ﷺ، ولهذا

---

(١) مسلم (٤٩٦٩) كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

كثير من المسلمين ممن يتسمى بالإسلام وممن يصوم ويصلي في المساجد مع الناس يقع في الشرك الأعظم وهو لا يدري ويظن أنه توحيد وعبادة، فيذهب لقبر الولي ويدعوه متضرعاً وخاضعاً له وذالاً بأن يهب له من أمور الدنيا أو يتقدم بين يدي الله جل وعلا شافعاً له وهو ميت، وهذا هو دين المشركين تماماً، وكثير من الناس يظن هذا من الأعمال الصالحة وأنه توسل بالصالحين وأنه من أفضل الأعمال، هكذا يقولون من أنه شرك أكبر.

والمقصود أنه يجب على الإنسان أن يتعرف على الشرك؛ لأنه أعظم ما نهى الله عنه وهو أنواع كثيرة وكلها تعود إلى شيء واحد وهو أن تكون العبادة أو شيء منها لغير الله جل وعلا.

* * *

وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ،

الشرح:

يعني الشرك، سواء في الدعاء أو العبادة وسيأتي أن الدعاء ينقسم إلى قسمين.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الشرح:

جاء عن ابن عباس أنه قال: «كل أمر في القرآن ﴿وَاعْبُدُوا﴾ فإن

معناه التوحيد» أي إفراد الله بالعبادة؛ لأنهم يعلمون أن الله لا يقبل من عباده إلا التوحيد والإخلاص لله جل وعلا، وهذا بيِّن واضح في القرآن، وقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦]، وبعدها قال: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، تأكيداً بأن العبادة هي فعل ما أمر الله به مع عدم الشرك، فهو كقولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقولك: لا شريك له تأكيد لـ«لا إله إلا الله»، ويؤكد للإهتمام به، وقوله: ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، نكرة في سياق النهي، فتكون عامة في كل مخلوق سواء كان نبي أو ملك أو ولي أو غير ذلك، وهذا يدل على أن العبادة يجب أن تكون لله وحده وليس لأحد من الخلق فيها شيء.

* * *

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

الشرح:

الإنسان اسم جنس، يعني على كل ذكر وأنثى أن يعرفها، وسوف يسأل كل فرد من الناس عنها في قبره حال دفنه، فيأتيه ملكان ويسألانه عن هذه الأصول الثلاثة كما بيَّن ذلك رسول الله ﷺ فيقولان له: مَن ربك؟ ومعناها مَن الذي خلقك وأوجب عليك العبادة وتعبدك بذلك؟ وليس معناها مَن ربك الذي رباك بالخلق والنعم وما يلزم للحياة والتربية فقط، ولهذا يأتي الرب بمعنى المألوه والمعبود.

وكذلك يقولان له: وما دينك الذي تدين به في حياتك؟ ومن الذي جاءك بالدين؟ فإن كان مؤمناً موقناً أجاب إجابة بهدوء وبلا خوف ولا

تلعثم، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ.

وفي رواية يقولان له: وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ يعني هل عرفته أم لم تعرفه؟ المقصود أن هذه الأصول يتعين على كل فرد أن يعلمها علماً يقينياً بلا شك ولا تردد ويموت عليها موقناً لأنه سوف يسأل عنها، وإذا تعلمها الإنسان بلا عمل فلا تنفعه، وإذا سئل عنها سوف يتلعثم ويتردد ولا يجيب؛ لأن الجواب يكون عن الشيء الذي عمل وتحلى به وثبت في مستقر قلبه ويقينه، أما إذا لم يثبت فيُخشى عليه ألا يجيب، وأن يقول مثلما يقول الشاك إذا سأله الملكان قال لهما: هاه هاه.. لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته[١]، يعني أنه مقلد، يرى الناس يعملون شيئاً فيعمل معهم ويقولون شيئاً فيقول معهم.

ومن هنا يتعين على الإنسان أن يتعلم هذه الأصول تعلماً يكون مثمراً بالعمل متيقناً به غير مقلد لمن يراهم ويعمل معهم.

* * *

---

(١) صحيح، انظر «أحكام الجنائز» (١٥٦-١٥٩). أهـ ألباني.

قال شاكر: رواه أحمد في «المسند» (ج٤ ص٢٨٧-٢٨٨-٢٩٥-٢٩٦) طبعة الحلبي مطولاً، ونقله ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٤٧٤-٤٧٥) عن المسند، ورواه أبوداود: (٤٧٥٣-٤٧٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧-٣٩)، بأسانيد كلها من رواية الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو، وزاذان أبي عمر الكندي». ووافقه الذهبي، وقد أطال الإمام ابن القيم القول في تصحيحه والرد على من أعله في «تهذيب السنن» (٤٥٨٦) (ج٧ ص١٣٩-١٤٦). أهـ.

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِيْنَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ.

الشرح:

هذه الأصول الثلاثة، معرفة العبد ربه ومعرفته الدين الذي كُلف به ومعرفة النبي الذي جاء بالدين؛ لأن الدين يجب أن يكون من عند الله جل وعلا، ولا يكون بالأوضاع ولا بالعقل ولا بالاجتماع على شيء وسنة من أنظمة وقوانين وغيرها؛ لأن الله هو الرب والرب هو الذي يرب الشيء ويملكه ويتصرف فيه، فالأمر له والنهي له، وأمره ونهيه هو الدين، ولا يأخذ عن الله إلا الرسول ﷺ، فهو الواسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ أوامر الله جل وعلا ونواهيه، وذلك بالوحي إليه بالأمر والنهي.

* * *

« الأَصْلُ الأَول »

مَعْرِفَةُ الرَّبِ

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبيِّ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي،

الشرح:

رباني يعني أوجدني وأنعم عليَّ بالتربية والغذاء وإزالة المضار التي تحول بين الإنسان ونموه وحياته وأنعم علي ظاهراً وباطناً، وإذا كان هو الذي خلق وهو الذي رزق وهو الذي صرف المضرات وجلب المنافع وحده لا شريك له في ذلك، فإنه يجب أن يعبد وحده، وهذا هو المقصود، فمعنى رباني أي خلقني وأغدق عليَّ من النعم التي بها أتربى في بدني وفي روحي، وتربية الروح بالوحي الذي يأتي به الرسول ﷺ وأما البدن فإنها بالمأكول والمشروب وكل ذلك من الله جل وعلا.

* * *

وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالمِينَ بِنِعَمِهِ،

الشرح:

يعني أنه خلق الخلق كلهم وأنعم عليهم بالشيء الذي يبقي عليهم حياتهم لا شريكك له في ذلك، والعالمين هم كل الخلق، فمعنى هذا أن الوجود كله شيئان فقط: مخلوق وخالق، فالخالق هو الله وحده لا شريك له، وما سواه مخلوق، وهذا المخلوق الله يتصرف به، أوجده بعد أن لم يكن شيئاً كما قال جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

ولا شك فقد جاءت عليه دهور طويلة جداً وهو ليس شيء ثم خلقه الله جل وعلا وأنعم عليه لعبادته، فكل مخلوق من العقلاء الذين هم الجن والإنس والملائكة متعبدون بأوامر ونواهي معينة، أما الحيوانات التي خلقت لبني آدم لمنافعهم فهي أيضاً مربوبة ومتعبدة عبادة تليق بها ويدخل فيها الشجر والنبات كله، أو الجمادات وكل شيء يسبح بحمد الله جل وعلا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والصواب من أقوال العلماء أنه تسبيح حقيقي بلسان المقال وليس بلسان الحال كما يقوله بعض من يقوله، ولهذا لما ذكر آية السجود أخبر أن كل شيء يسجد لله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، يعني لا يسجد لله، أما غيرهم فهم يسجدون لله.

* * *

وَهُوَ مَعْبُودِي

الشرح:

يعني ربي الذي خلقني وربّاني بنعمه الظاهرة والباطنة منذ وضع الإنسان في رحم أمه نطفة، فنعم الله تتوالى عليه، حفظه في قرار مكين وغذّاه تغذية عجيبة في بطن أمه، لا دخل لأمه به ولا لأبيه، ثم أخرجه من ذلك المكان الضيق إلى سعة الدنيا وليس عليه أي شيء، ثم فتح له باب الأرزاق وسخّر له والديه، فأصبح والده ووالدته يسهران على مصلحته وعلى منافعه ويقدمان مصلحته على مصلحتيهما تسخيراً من الله له، وهي من النعم التي أنعم بها عليه، حتى في الحيوانات تجد السبع الضاري يعطف على ولده ويقاتل دونه أشد القتال ويسعى على منافعه وكذلك كل

الحيوانات حتى تبلغ وتستطيع أن تتحصل على الرزق بنفسها، عند ذلك تتخلى عنه، فالمقصود أن الله جل وعلا خلق كل شيء وهداه لمصالحه وأعطاه خلقه الذي به تتم نعمته عليه، وبذلك وجب أن يُعبد وحده لا شريك له والعبادة هي طاعة أمره واجتناب نهيه مع الذل والخضوع والتعظيم له تعالى، وأمره ونهيه لابد أن يكون بلّغه رسول الله ﷺ.

* * *

لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛

الشرح:

يعني أن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد، ولهذا نعى الله جل وعلا وذم المشركين الذين يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فالذي لا يملك الضر ولا النفع عبادته ضلال، وكذلك بيَّن أن المعبودات من دونه كثيرة، منها ما ليس له سمع ولا له بصر وليس له يد يبطش بها ولا رجل يمشي بها، ومن أضل ممن يعبد مخلوقاً مثله أو دونه، وأشد الضلال أن يعبد ميتاً مرهوناً بعمله في حفرته بأن يتجه إليه ويطلب منه أن ينجيه من النار وأن يهب له مغفرة الذنوب أو يهب له ولداً أو يهب له رزقاً أو ينصره على عدو أو ما أشبه ذلك كما هو شأن الذين ينصرفون عن عبادة الله جل وعلا إلى عبادة أصحاب القبور.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

الشرح:

يعني دليل أن الله هو الرب المربي المالك، و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو الثناء

بالجميل الاختياري باللسان على النعم التي يُنعم بها، و﴿الـ﴾هنا للاستغراق، جميع المحامد التي يستحقها الرب جل وعلا خالصة له، وقوله: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني الذي رباهم وربَّهم، فربَّهم خلقهم وأوجدهم، ورباهم بالنعم و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كل الخلق عالم، فكل نوع من الخلق عالم، فالإنسان عالم والجن عالم والملائكة عالم، والبهائم عوالم، والشجر وغيرها، فكل مخلوق عالم كما بيَّن الله جل وعلا، فهو رب الكل الذي خلقهم وأنعم عليهم وتعبدهم. اهـ.

* * *

وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَـمِ.

الشـرح:

يعني الله هو الخالق وغيره مخلوق مربوب مقهور مسخر مدبر وسوف يرجع كل واحد إلى ربه جل وعلا فيجازيه بعمله، إن كان مكلفاً فإما إثابة وإما عقاب، وإن كان غير مكلف فإنه يقتص من الحيوانات التي قد يعتدي بعضها على بعض، ثم يقال لها: كوني تراباً، وأما إن كان غير ذلك فهو خلق لبني آدم كما قال الله جل وعلا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

* * *

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

الشـرح:

هذا معناه أنه يلزم على الإنسان أن يتعرف على ربه جل وعلا بالدليل، والدليل إما أن يكون من آيات الله، أو يكون بمخلوقاته، أو يكون

بالعقل الذي أعطاه الله جل وعلا الإنسان وهو يجمع هذا وهذا، وإما أن يكون بالفطرة التي فطر الخلق عليها، والله فطر خلقه على الإقرار به، فكل إنسان مربوب وإذا وقع في شدة يفزع إلى ربه يدعوه وذلك فطرة من الله جل وعلا، ولهذا احتج الله على الكفار المشركين بهذه الفطرة، فقال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وغالباً يقع الإنسان في الكرب والشدة فيحتاج إلى سؤال ربه ولا ينفك الإنسان أن يكون الله جل وعلا قد استجاب له؛ لأن مقتضى الربوبية أن يجيب دعائه وأن يقوم على مصالحه وهو من معاني التربية، فمعرفة الله جل وعلا تكون ظاهرة بآياته، وآياته تنقسم إلى قسمين: آيات كونية مخلوقة تشاهد وآيات قولية ينزلها على عباده ويتبع هذا آيات فعلية يفعلها إذا شاء، ومن ذلك ما يكون خارجاً عن المعهود الذي عهده الناس والذي يسمى معجزات والله سماه آيات مثل إحياء الموتى، ومعلوم أن الميت إذا مات لا يستطيع أحد من الأطباء أو غيرهم إرجاع الروح فيه وهو أمر يقر به العالم كله لكن الله يحيه وجعل ذلك آيات وأوجد ذلك بالنظر والمشاهدة حتى لا يرتاب الإنسان وقد ذكر الله جل وعلا إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع وهي:

الموضع الأول: قصة الذي قتل قريبه خفية ليرثه فأمر الله جل وعلا موسى عليه السلام أن يأمرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوا الميت بعضو منها، ففعلوا؛ فقام حياً وقال: قتلني فلان. قال جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا

بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا
مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا
قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ
فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ
وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٣].

الموضع الثاني: قصة الذين خرجوا مع موسى وقد اختارهم للقاء ربه جل وعلا لما وعده أن يكلمه فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣]، فماتوا، فصار موسى يدعو ربه ويقول: يا رب، ماذا أقول لبني إسرائيل وقد اختار خيارهم وعددهم سبعون، وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فصار يدعو ربه فأحياهم الله جل وعلا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الموضع الثالث: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال الله لهم موتوا ثم أحياهم.

الموضوع الرابع: قصة الذي مر على قرية خاوية على عروشها: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ

لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الموضع الخامس: قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. يعني قطعهن وجزئهن واخلط أجزاءهن وفرقها واجعل على كل جبل من الجبال جزء، فقطعها وفرقها وخلط أجزاءها بعضها مع بعض ثم دعاهن فأتين إليه يسعين كما كن، وأما ما جاء في سورة الكهف فهو نوم ضربه الله عليهم سنين طويلة وهو دليل أيضاً على الإحياء، والله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء.

ففي الصحيحين أن رجلاً كان مسرفاً على نفسه وكان لم يعمل خيراً قط ولكنه كان يخاف الله فحضره الموت فجمع أولاده فقال لهم: يا بني أيُّ أبٍ كنت لكم؟ قالوا: خير أب، فقال: إذاً افعلوا ما أقول لكم، إذا أنا مت فأحرقوني في النار حتى أكون فحماً، ثم اسحقوني سحقاً دقيقاً، ثم إذا كان يومٌ عاصف ذروا نصفي في البحر ونصفي الآخر في البر فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً لم يعذبه أحداً من الناس، فنفَّذوا وصيته.

عند ذلك قال الله جل وعلا له: كن، فقام حياً، فقال له: ما حملك

على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فغفر الله له[١].

هذا شك في قدرة الله وشك في البعث، ومعلوم أن الشك في قدرة الله والشك في البعث كفر، ولكن الله يفعل ما يشاء، فلا يجوز لإنسان أن يقول أنه يجب على الله أن يفعل بهذا المخلوق كذا أو كذا، ولا يكون ذلك حجة على أن من أنكر البعث أو أنكر قدرة الله أنه لا يكون كافراً؛ لأن هذه واقعة عين بشخص معين ولله أن يفعل ما يشاء.

فنقول: أن من الآيات التي يستدل بها الإنسان على الله جل وعلا الآيات القولية، ومنها: القرآن ووجه دلالته على الله أنه من أعظم المعجزات ومن أكبر الآيات، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر أبداً وذلك من وجوه كثيرة جداً منها وجوه الترتيب والمعاني والفصاحة والبلاغة وما يشتمل عليه من الإخبارات ومن الأمر والنهي وغير ذلك، ولكن هذا لا يعرفه إلا من يعرف اللغة العربية.

ولهذا كان الكفار بعضهم إذا سمع القرآن سجد لفصاحته وبلاغته وليس لإيمانه بل لهذا البيان العظيم وكان الذين يعرفون اللغة تماماً عندهم من العناد والكبر ومن كيد دعوة الرسول ﷺ والحرص على ألا يسمعه أحد بحيث أنهم كانوا يتعاهدون ويتعاقدون ألا يذهب أحد منهم يستمع على رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في الليل في بيته، فإذا مضى أكثر الليل كل واحدٍ منهم يقول لعل الباقين لا يعلمون عني فيذهب يسمع فيلقى أصحابه الذين كان يعاهدهم ثم يتلاومون ويقول أحدهم إنه ليس

(١) البخاري (٣٢٢٢) كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، مسلم (٤٩٤٩) كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلام بشر ولا كلام جن ولا كلام كهنة إن أسفله مغدق وأعلاه مورق إن له طلاوة وعليه حلاوة[١]، فإذا سمع العربي آية منه ما يتلافاه إلا أن يذعن ويؤمن بذلك، فهذا من أعظم الآيات.

وقد تحدى الله جل وعلا البشر أن يأتوا بشيء منه قال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]. أي أن هذا النفي لن يقع أبداً؛ لأنه كلام الله.

وفي الآية الأخرى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. لأنه كلام الله، والفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين الله وبين البشر تعالى الله وتقدس، فهذا من أعظم الآيات الدالة على الله جل وعلا، ومن ذلك ما فيه من ذكر الآيات الخاصة، والإخبارات التي يخبر بها لم تسبق فقد أنزل على محمد ﷺ وكان أميّ لا يكتب ولا يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، فأتى بإخبارات لا يمكن أن يأتي بها إلا الوحي من خبر خلق السماوات وخبر خلق آدم مع زوجه لما خلقه الله جل وعلا بيده وعلَّمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته ثم سوَّل له الشيطان وأقسم له وأخرجه من الجنة غروراً.

وكذلك نبئ نوح مع قومه، وهود مع قومه، وإبراهيم مع قومه،

---

(١) وهو من كلام الوليد بن المغيرة ذكره الحاكم في المستدرك والبيهقي في «دلائل النبوة» وفي «شعب الإيمان».

وصالح مع قومه، وشعيب ولوط وموسى وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله جل وعلا، وكذلك الأنباء التي ستكون مما يكون يوم القيامة وإلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وكذلك الأوامر التي تكون في المستقبل الذي قد ندركه وقد لا ندركه في هذه الحياة.

وكذلك ما ينبه فيه العقول من النظر كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

يتأملون ويعقلون هذه، والآيات كثيرة وكلها أدلة، وكذلك الأمور التي تقنع العاقل تماماً كقوله جل وعلا: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. لا يمكن أن يخلق مخلوق بلا خالق أو أن يوجد صدفة كما يقال هذا مستحيل، ولا يكون أبداً ولا يمكن أن نجد سيارة بلا صانع أبداً، فإذا كان مخلوقاً فلابد له من خالق، فذكر أمرين أحدهما: ﴿خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا مستحيل.

والأمر الثاني: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. يعني هم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضاً مستحيل، ولا يكون مثلهم خلقهم، وسكت عن الأمر الثالث الذي لابد منه وهو أن لهم خالق خلقهم وهو الله جل وعلا، وهذه طريقة القرآن، يذكر الأمور الباطلة فيبطلها ويسكت عن الحق لينظر العقل فيه ويتأمل ويعلم ذلك، يقول الله جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي

ﭐلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣]. إما أن يكون ﴿أَنَّهُ﴾ الضمير يعود للقرآن أو يعود إلى الرسول وكلاهما متلازم، فالرسول والقرآن حق، ويقول جل وعلا: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴾ [الطارق: ٥-٨]. متى؟ ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

ثم كذلك من الآيات التي تدل على الرب جل وعلا المخلوقات مثل: السماوات والأرض، كما ذكر فهي من أعظم الآيات، وهذه السماوات بعضها فوق بعض ونحن نشاهدها، فالمشاهد لنا هو السماء الذي يقول الله جل وعلا: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ [ق: ٦].

وكذلك الأرض بهذه الصفات بما فيها من الجبال ومن الأشجار ومن البحار ومن الأنهار والنباتات المختلفة في ألوانها وطعومها، مع أن التربة واحدة والماء واحد، وكذلك من آياته جل وعلا آياته التي هي أوصافه وأفعاله، فهو يتعرف إلى عباده جل وعلا بصفاته وبأسمائه وبما يفعله لهم، وهي أشياء كثيرة جداً إذا تأملها الإنسان اقتنع بشيء منها، فهذا معنى معرفة الرب كون الإنسان يعرف ربه بهذه الجوانب وبهذه الأمور، يجب أن ينظر ويتيقن وبذلك يتيقن أن الله هو ربه جل وعلا ويسأل ربه جل وعلا أن يهديه لهذا؛ لأنه لابد من هداية الله جل وعلا.

ومعلوم أن الناس عقلاء وكثير من العقلاء عقولهم دنيوية فقط، ما هدتهم عقولهم إلى معرفة الله جل وعلا وإلى معرفة مستقبلهم الحقيقي

وإنما هدتهم على مخترعات دنيوية كما هو مشاهد الآن، ومع ذلك هم كفرة، لهم هذه الحياة الدنيا وإذا ماتوا فهم في جهنم، فلم تنفعهم هذه العقول، ولهذا يجب على العبد أن يسأل ربه الهداية دائماً مع هذه الدلائل الظاهرة الواضحة التي إذا نظر إليها العاقل اطمئن.

وليس هناك أمور صعبة كما يتصوره أهل الكلام والجدل الذين جاءوا بأمور لم تأتي بها الرسل وإن كانت صحيحة في نفسها غير أنها طرق ملتوية وصعبة على كثير من الناس، بالنظر إلى الحوادث يلزم لها من أين جاءت وأصلها، أمور لها جواهر وأعراض وما أشبه ذلك والجوهر هو الشيء الذي يقوم بنفسه والعرض هو الذي يعرض ويزول ويعرض لغيره ولابد أن يقوم بغيره.

فهذه أمور وإن كانت في نفسها قد تكون صحيحة وقد تهدي ولكنها لا تكفي ولم تأتي بها الرسل وإنما جاءت الرسل بالأمور الواضحة كالذي ذكرنا وغيره.

* * *

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ،

الشرح:

يعني كون الليل يأتي فتظلم الأرجاء كلها ثم يأتي النهار ويزول الظلام وهكذا دائماً كل واحد يطلب الآخر حثيثاً خلفه بتدبير متقن يدل على أن له مدبر ولا يمكن أن يكون المدبر من جنس هذه المخلوقات، فهو ليس كمثله شيء جل وعلا، ومعلوم أن الليل والنهار من أثر الشمس وظل الأرض، والذي وضع الشمس بهذه الطريقة هو الله جل وعلا،

ولهذا لما قال الكافر العنيد لإبراهيم لما دعاه إلى الإيمان بالله قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فالعناد لا يبقى؛ لأن الله جل وعلا أرسل للمعاندين الحديد ولهذا يقرن جل وعلا بين الكتاب وبين الحديد في مواضع، ينزل الكتاب وينزل الحديد فيه بأس شديد، فالحديد للمعاندين المكابرين والكتاب لمن يريد الأدلة ويقتنع بها، والكتاب يدل العقول ويرشدها إلى معرفة وعبادة الله جل وعلا.

سئل أعرابي كان مع إبله لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم فلسفة ولا غير ذلك، ولكنه يفكر وعنده عقل قيل له: كيف عرفت الله؟

فقال: يا عجب، الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير، بحار ذات أمواج، وسماء ذات أبراج، وجبال ذات فجاج، ألا تدل على الخالق البصير[١]، يعني هذه الأشياء المشاهدة التي يشاهدها دلائل واضحة، وهكذا العقل، ولهذا يرشد الله جل وعلا إلى ذلك، يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِى تَجۡرِى فِى ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. يعني عندهم عقل.

وفي كل جملة من هذه الآية دلائل هائلة بينة واضحة، خلق

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة البقرة، آية: ٢٢.

السماوات والأرض وكذلك البحار وتسخيرها وما فيها من الحيوانات وغيرها والمنافع التي تنفع الناس، وكذلك ما أنزل الله من السماء من ماء، فكيف يحمل الماء ومن أين يأتي وكيف يحمله السحاب الذي يشبه الدخان، وإذا نزل الماء ما هو أثره وكيف تتشقق الأرض وتخرج أنواع النباتات التي فيها حياة الإنسان وحياة البهائم والطيور وغيرها مما هو على الأرض، من أين خرج ومن هو الذي شقق الأرض عنه ثم ألوانه وطعومه المختلفة مع أن الماء والتراب واحد، ثم الرياح التي مرة تأتي من هنا ومرة تأتي من هنا وهي تحمل السحاب وقد تقتلع العمائر والأشجار وغيرها، كل هذا دلائل واضحة على أن الله جل وعلا هو الخالق وهو الذي يجب أن يعبد.

* * *

وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

الشرح:

ويعني أنها من أعظم الآيات، كونه خلق الشمس بهذه الصورة وعلى هذه الصفة العظيمة العجيبة وبهذا الارتفاع الشاسع ثم سريانها وجريانها مع الأرض بهذا النظام وبالوقت الطويل جداً وهي لا تتغير على ما هي عليه، لو أراد الناس أن يضيئوا بلدة من البلدان فسوف يتعبون بالتمديدات وبإيجاد المولدات وبأشياء تتطلب عملاً كثيراً جداً وهي بقعة صغيرة

محصورة، وهذه تضيء الأرض كلها إضاءة هائلة والآلاف من السنين وهي هكذا ولم تنقص وهي على ما هي عليه حتى يأتي وعد الله جل وعلا، وكذلك القمر في إضاءته وما يترتب عليها من الآيات والمنافع، وهذا الذي يأمرنا الله به جل وعلا أن نتأمله حتى يدعونا ذلك إلى عبادته، ولهذا قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

والسجود يقصد به التوجه بالعبادة إلى من خلق الشمس والقمر وسخرهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. أي أن أكثر الناس لا يتأمل ذلك ولا ينتفع به فيصبح إما أن يعبد نفسه أو يعبد مخلوقاً مثله أو أقل منه كأن يكون ميتاً لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن داعيه.

* * *

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الشرح:

في هذه الآية ذكر أن الخلق وقع بعد لم يكن موجوداً، ولذلك قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وهذه الأيام الستة التي ذكرها إما أن تكون مقدرة بهذه الأيام التي نعرفها أو تكون مقدرة بشيء آخر، أفلاك أخرى، مخلوقات أخرى قبل خلق السماوات والأرض الله يعلمها، وما وراء هذه المخلوقات لا نعلمها ولا نتكلم بها، وإلا فالله جل وعلا أول لا مبدأ له وما كان ربنا جل وعلا قبل خلق السماوات والأرض لا يعقل شيئاً معطلاً

عن الفعل والقول والتصرف تعالى الله وتقدس، بل كان يفعل ما يشاء كما قال الله جل وعلا ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

كل ما أراد أن يفعله فعله ولكن عقل الإنسان محدود وصغير فعليه أن لا يجاوز الشيء الذي يستطيع إدراكه أما ما وراء الأمور المدركة والمشاهدة فهو شيء يحتاج إلى خبر من الله جل وعلا، ومن رحمة الله جل وعلا أنه يخبرنا بالشيء الذي تتحمله عقولنا، وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: أتيت على راحلتي فعقلتها عند باب المسجد ودخلت، فإذا رسول الله ﷺ إذ دخل بنو تميم فقال ﷺ: «**يا بني تميم اقبلوا البشرى**» فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يبشرهم بالسعادة الأبدية وبأنهم قبلوا هذا الدين ودخلوا فيه، ومن فعل ذلك فإن له السعادة التي لا تشبه سعادة الدنيا، فلما انصرف نظرهم وقولهم إلى أمر الدنيا، قالوا: أعطنا. علم أنهم لم يفهموا ما أراد وأنهم يتجلون، فلهذا تغير وجهه ﷺ.

ثم دخل أهل اليمن، فقال ﷺ: «**يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم**»، فقالوا: قبلنا، جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن مبدأ هذا الأمر، فقال: «**كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، ثم خلق السماوات والأرض، ثم كتب في الذكر كل شيء**».

يقول عمران بن حصين رضي الله عنه: فأتاني آتٍ فقال: أدرك ناقتك فقد ذهبت، فخرجت فإذا السراب يتقطع دونها، وأيم الله، لوددت أني

تركتها ولم أخرج(١). يعني يجلس ليسمع العلم والإيمان الذي يقوله الرسول ﷺ.

فقول أهل اليمن: جئناك نتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر، يعني أن هذا الأمر المشارُ إليه، يعني هذا المخلوقات المشاهدة من السماء والجبال والأرض والأشجار وغيرها ما أولها؟

فلهذا جاء الجواب مطابقاً لهذا السؤال، قال: كان الله ولم يكن شيءٌ قبله ثم خلق السماوات والأرض ثم كتب في الذكر كل شيء، فالمقصود أن الخبر عن المخلوقات المشاهدة من السماوات والأرض، ثم السماوات التي يأمرنا ربنا جل وعلا بالتفكر فيها ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ويقول جل وعلا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١-٤].

فلم يأمرنا الله جل وعلا إلى العدم الذي لا وجود له، وإنما هذا الذي نشاهده فوقنا هذه الزرقة هي التي سماها ربنا جل وعلا سماء، وهي سماء

---

(١) «البخاري» (٣١٩١) كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، و«سنن الترمذي» (٣٩٥١)، كتاب المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، ذكره الألباني في «المشكاة».

مبنية حقيقة لها أبواب ولا أحد يدخلها إلا بإذن ويفتح له، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل الذي فيه احتضار الميت وقصة أنه إذا مات وأن روحه يعرج بها إلى السماء، ثم يستفتح لها باب السماء، فإن كانت من أهل الخير والبر فتح لها ثم لا يزال يستفتح لها باب السماء إلى أن تنتهي إلى السماء التي فيها الله، فيقول الله جل وعلا لهم: اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

أما إذا كان فاجراً أو كافراً فإنه إذا استفتح له باب السماء الدنيا لم يفتح له ثم ينادي منادٍ أن اكتبوا كتابه في سجين، ثم يقول: تطرح طرحاً فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١][(١)]. ولكنها ترجع إلى جسده حتى تكون معه في القبر ويحصل العذاب على الروح والبدن معاً، وكذلك في حديث المعراج وهو ثابت بالتواتر أن رسول الله ﷺ ذهب بصحبة جبريل، فلما وصلا إلى السماء الدنيا استفتح جبريل باب السماء، فقيل له: من؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. فقيل له: أبُعث ـ يعني أرسل ـ قال: نعم. ففتحوا له. وهكذا في السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. هكذا يذكر[(٢)].

---

(١) أحمد (١٧٨٠٣)، الحاكم في «المستدرك» (١٠٦)، البيهقي في «السنن الكبرى» وفي «شعب الإيمان»، وجميعها من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) حديث الإسراء صحيح، وهو ملتقط من أحاديث متفرقة، من ذلك هذا اللفظ كما بيّنه الحافظ ابن كثير في تفسيره «الإسراء» ومن قبله البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٠-٤٤٢). أهـ ألباني.

فقول أهل الهيئة الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس: إن هذه الزُرقة التي نشاهدها ليست حقيقة وإنما هي انعكاسات أبخرة أو أوكسجين أو بحار أو غير ذلك كلامٌ غير صحيح، فالله جل وعلا أخبرنا أنه خلق السماء وأمرنا أن ننظر إليها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وكذلك يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. فهي مقببة على الأرض والسماء التي فوقها كذلك مقببة عليها والتي فوقها كذلك، والشمس والقمر والنجوم تحت السماء الدنيا زينة لها كما أخبر الله جل وعلا، فهذا من آيات الله جل وعلا.

* * *

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

الشرح:

الاستواء فعل خاص بالعرش، والله جل وعلا غني عن العرش، ولكنه جل وعلا أخبرنا أنه خلق العرش ثم استوى عليه، والعرش وحملة العرش وغيرهم فقراء إلى الله جل وعلا والله هو الغني بذاته عن كل ما سواه ولكنه يفعل ما يشاء وكل فعل يفعله فهو لحكمة، ولهذا أخبرنا بذلك لنؤمن به ويبتلي عباده هل يؤمنون بهذا أو يردونه أو يضلون فيه؟ فيجازي من آمن على حسب خبر الله جل وعلا ومن لم يقبل ذلك فجزاؤه عند الله وليس بمعجز.

* * *

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

الشرح:

ويعني ﴿يُغْشِى﴾ أنه يدخل هذا بهذا، فتجد النهار ملتصق بالليل والليل ملتصق بالنهار وكل واحد يطلب الآخر بسرعة وهكذا إلى أن يأذن الله جل وعلا في تغير الكون، فهناك يبدأ التغير فيأتي يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع، وهذه الأيام الثلاثة من أيام الدجال حين يخرج، وهذا إيذانٌ بتغير الكون وكذلك خروج الشمس من المغرب حيث يطول الليل على كثير من الناس الذين يتهجدون ثم يخرجون وينظرون ويعودون مرات متكررة، بينما هم كذلك إذ الشمس خارجة عليهم من جهة المغرب فتسير على هذا المنوال حتى يشاهدها أهل الأرض كلهم ويعلمون أنها خرجت من المغرب يعني انعكس سيرها ثم بعد ذلك تعود كما كانت إلى أن ينفخ في الصور.

❊ ❊ ❊

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

الشرح:

يعني أنها تسير بدقة وإتقان بأمر الله جل وعلا وليس بأمرها هي، هي ليس لها تصرف وإنما جل وعلا هو الذي أمرها بهذا.

❊ ❊ ❊

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

الشرح:

يعني هو الذي خلق هذه الأشياء المشاهدة، وليس معه من يعاونه أو

يساعده أو يشاركه في ذلك ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، والعطف في قوله: ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يدل على المغايرة، فالخلق شيء والأمر شيء، الأمر الذي يأتي بقوله وإذنه بأن يقول للشيء كن فيكون وكذلك يأمر عباده بما يشاء وينهاهم عما يشاء، فالأمر من صفاته والخلق آثار أفعاله.

* * *

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الشرح:

﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعاظم، فهو جل وعلا يثني على نفسه؛ لأن الخلق لا يستطيعون أن يصلوا إلى الثناء الذي يستحقه الله جل وعلا، و﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي الخلق كلهم سواء كان عاقل أو غير عاقل.

* * *

وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ،

الشرح:

يعني أنه هو الذي يجب أن يُعبد، قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فهو الذي يجب أن يُعْبَد؛ لأنه هو الذي يملك لهم الجزاء على العبادة، ويملك التعذيب إذا لم يعبدوه، وليس ذلك لأحد من الخلق مع أنه هو الذي أوجدهم وهو الذي يرزقهم ويعافيهم، ولكن أكثرهم يكفر بالله جل وعلا، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على**

أذى سمعه من الله»[١]، يتخذون له الولد ثم يرزقهم ويعافيهم مع أنهم يقولون أن له ولداً، وهذه مسبَّة لله جل وعلا، ومع هذه المسبَّة يرزقهم ويعافيهم.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

الشرح:

لأنه أمرهم أن يعبدوا ربهم، والعبادة إذا جاءت المقصود بها التوحيد وليست مجرد الذل والخضوع والركوع والسجود والدعاء والذبح والنذر، فهذه ليست عبادة شرعية حتى تكون خالصة وتكون توحيداً، وفِعْل كل أَمْر أَمَر الله جل وعلا به، أو أَمَر به رسوله خوفاً من الله ورجاءً لثوابه وترك كل شيء نهى عنه أو نهى عنه رسوله خوفاً من الله ورجاءً لثوابه، فإنه عبادة، فإذن يكون حصر العبادة وذكر أفرادها صعب جداً؛ لأنها كثيرة، يدخل فيها أعمال القلوب والنيّات والمقاصد والخوف والرجاء والإنابة والخشية وأعمال الجوارح وقول اللسان فهي كثيرة جداً، ولهذا اختلف العلماء في العبادات التي تُعَرِّف العبادة.

* * *

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا

(١) «البخاري» (٦٠٩٩) كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة».

تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

الشرح:

يعني أنكم تعلمون أن الله هو الذي يفعل هذه الأشياء، وهو الذي خلقكم ولم يشاركه في خلقكم مشارك ولم يعاونه على ذلك معاون ـ تعالى الله وتقدَّس ـ هذا شيء يقرّ به الخلق، فإذا سألت الكافر عمن خلقه قال: الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وكذلك إذا سألتهم عن خلق السماء ومن خلق الأرض يقرون، وإذا سألتهم من الذي ينزل المطر وينبت النبات: يقولون الله، ومَن الذي خلق الأرض على هذه الصفة وجعلها مستقرة ويمكن المشي عليها والجلوس عليها والانتفاع بها ولم تكن مضطربة متحركة، لهذا إذا حصل اضطراب في ثوانٍ هلك من عليها، إذا حصل زلزال في جهة من الجهات حدث الهلاك والدمار، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]. الزلزال الحقيقي وليس مثل هذا، بل كلها بجملتها تتزلزل، ولهذا تصير الجبال ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥]، أي: مثل الصوف إذا انتفش ثم بعد ذلك تصير هباءً من شدة الزلزال ويهلك كل من عليها إذا أوحى الله إليها وأمرها بذلك، أما الآن فجعلها جل وعلا مستقرة ثابتة ويمكن الانتفاع بها وجعلها ﴿ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]. يعني بطنها محل الأموات، وظهرها ذلولاً للأحياء ينتفعون بها، وكذلك يجعلون في بطنها ما يؤذيهم بالروائح وغيرها، فهي مسخرة لهم بخلق الله لها ومع ذلك سوف تحدث أخبارها، ذلك بأن كل مكان سوف يتكلم ويقول: فلان

عمل عليَّ كذا وكذا، ويصبح هذا المكان شاهداً عليه، إما بالخير وإما بالشر، ويقول جل وعلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]. والسماء والأرض تبكي لأنها تتأثر بالطاعة، فإذا مات صاحب الطاعة الذي يطيع الله جل وعلا على الأرض فإنها تبكيه البقعة التي كان يتعبد فيها وكذلك الموضع الذي يصعد عمله منه إلى السماء يبكيه؛ لأنه يفقد ذلك العمل الذي يعبد الله جل وعلا به ويسبحه ويذكره ويهلله، والذي خلق هذه الأشياء وأنزل المطر وأنبت النبات هم يعلمون أنه هو الله وحده ليس معه مشارك، فلهذا جعل ذلك دليلاً على وجوب أن يعبدوه، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. مادام أنكم تعلمون أنه هو وحده المتفرد بما ذكر، فيجب أن تفردوه بالعبادة.

* * *

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ[1].

الشرح:

يعني أن هذا أمر ظاهر جلي ودليل لا خفاء فيه، أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يُعْبَد.

* * *

(١) «عقيدة الفرقة الناجية» (١/ ١١).

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ،

الشرح:

هذا هو الأصل الثاني الذي سيذكره، والدعاء معروف، وهو الاتجاه إلى الله جل وعلا، والعلماء قسموا الدعاء إلى قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة، فدعاء المسألة هو كل شيء تطلبه من الله من أمور الدنيا أو الآخرة، أما دعاء العبادة فيدخل فيه هذا ويدخل فيه التسبيح والتكبير والقراءة والصلاة والصدقة وغيرها وذلك لأن الذي يقرأ القرآن أو يسبح أو يصلي فهو يفعل ذلك راجياً به ثواب ربه، فيكون دعاء العبادة أعم وأشمل ولا يخرج منه شيء من العبادة، ودعاء العبادة لا أحد ينكره ولكن عباد القبور أنكروا أن يكون دعاء السؤال عبادة، يريدون أن يبرروا أنهم إذا قالوا يا فلان أغثنا يا فلان أعطنا كذا وكذا، وهو ميت أن هذا لا يكون عبادة، وهذا مكابرة، وليسوا من أهل اللسان الذين يرجع إلى قولهم وليسوا من العلماء الذين يعتبر خلافهم وإنما يقولون ذلك من باب المغالطات واتباع الهوى والعادات والمألوفات التي ألفوا عليها أهل بلدهم أو من تلقوا عنه علومهم وهو ليس حجة إنما الحجة ماجاء به الرسول ﷺ وما أجمعت عليه الأمة من علماء السلف.

❃ ❃ ❃

وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، والاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

الشرح:

﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ هنا المقصود بها مواضع السجود من بدن الإنسان، يعني أن أعضاء الإنسان نعمة من الله وهبها له، فهي له يجب أن يشكر عليها وأن يتعبد بها، فلا تعبدوا بها معه أحد، وقيل: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ مواضع السجود من الأرض سواء كانت مبنية ومحاطة ومعدة لأداء العبادة أو كانت غير مبنية؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأي إنسان من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره**»[(١)]. فيكون المسجد هو الموضع الذي تسجد فيه وهو لله، ومعلوم أن المساجد المبنية تسمى بيوت الله، فهي لله لا يملكها أحد بل هي مشاع بين المسلمين يؤدون فيها العبادة لله وحده؛ لهذا قال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وهنا المقصود بالدعاء دعاء العبادة ويدخل فيه دعاء المسألة. اهـ.

* * *

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛

الشرح:

الكفر يكون أعم من الشرك؛ لأنه قد يوجد الكفر بلا شرك، فمثلاً اليهودي الذي لا يعبد الأصنام وإنما يعبد الله ولكنه لم يؤمن بمحمد ﷺ

---

(١) «البخاري» (٣٣٥) كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا**»، و«النسائي» (٤٣٢) كتاب الغسل والتيمم، باب التيمم بالصعيد، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٥٦) في «صحيح الجامع».

يكون كافراً وإن لم يكن مشركاً وغير ذلك، فالكفر أعم، ولهذا قسم العلماء الكفر أقساماً خمسة، أحد هذه الأقسام الشرك، ثم قسموا الشرك إلى قسمين: شرك أكبر وشرك أصغر، ومن أقسام الكفر النفاق. وقسموا النفاق إلى قسمين: نفاق اعتقادي وجعلوه أقساماً ستة وكل واحد كافٍ في كون الإنسان خارجاً من الدين الإسلامي وخالداً في النار ونفاق عملي وجعلوه أقساماً خمسة، وقالوا: إذا اجتمعت هذه الأقسام الخمسة العملية في إنسان فلابد أن يكون عنده نفاق اعتقادي، فيكون منافقاً خالصاً كما قال الرسول ﷺ: «**من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها**»(١)، ثم قالوا: قسم ثالث من الكفر وهو كفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الدعوة، وقسم آخر من الكفر هو كفر النعمة وهو غير مخرج من الدين.

* * *

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الشرح:

هذا يدلنا على أن شرك المشركين كان عبادة الله ولكنهم يعبدون معه غيره، وما كانت العبادة خالصة للأصنام وإنما كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب وتنيب له وتحبه وتذل له وتعظمه وتخضع له.

* * *

(١) «البخاري» (٢٤٥٩) كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر، «سنن الترمذي» (٢٦٣٢)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في علامة المنافق، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٨٨٩) في «صحيح الجامع».

﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾

الشرح:

هذا خرج مخرج الغالب الواقع، وإلا كل داعٍ يدعو غير الله ليس له برهان، والبرهان هو الدليل الظاهر، وليس كل دليل يكون برهاناً، وإنما كل برهان دليل، فالبرهان هو الدليل الجلي الظاهر، والمعنى أن المشركين ليس لهم برهان في شركهم، فعلى ذلك يستحقون العقاب؛ لأنهم يدعون مع الله ما لا دليل لهم عليه، وهذا معنى ما جاء في كثير من الآيات أنهم لا سلطان ولا حجة لهم على ما عبدوا ودعوا.

* * *

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الشرح:

هذا فيه تهديد عظيم؛ لأنه ذُكِرَ الحساب وأنه يكون عند الله جل وعلا دل على أنه سوف يفجؤوه به فيبدو له ما لم يكن يحتسب في ذلك المكان.

* * *

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الشرح:

والفلاح هو الفوز بالظفر المرجو، فالكافر لن يفلح فهو خاسر وخائب وكفى به خيبة وخزياً أن يكون في جهنم ويبقى فيها خالداً.

* * *

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

الشرح:

هذا الحديث معروف في الترمذي، وهو ضعيف، ولكن معناه صحيح، ودلَّت عليه آيات وأحاديث ثابتة، وأصح منه «الدعاء هو العبادة»[1]، وهو حديث حسن.

* * *

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

الشرح:

وما دام ربنا أمرنا بالدعاء فهو عبادة، وهذا الدعاء فسر بدعاء المسألة، وفسر بدعاء العبادة، ولهذا يقول بعض المفسرين: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أثبكم، وبعضهم يقول: أعطكم، فالذي يقول: أثبكم، يجعله دعاء عبادة، والذي يقول: أعطكم، يجعله دعاء مسألة، وكل دعاء في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هو دعاء عبادة، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهذا يحتمل أن يكون دعاء مسألة ويحتمل أن يكون دعاء عبادة، ولكن جاءت آيات واضحة وظاهرة في دعاء المسألة وهذا لا إشكال فيه.

* * *

(١) «سنن الترمذي» (٢٩٦٩) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، «ابن ماجه» (٣٨٢٨)، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٣٤٠٧) في «صحيح الجامع».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠].

الشرح:

فسرت العبادة بالدعاء والاستكبار عن العبادة يعني عدم مسألة الله جل وعلا.

* * *

﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

الشرح:

﴿دَاخِرِينَ﴾ يعني صاغرين ذليلين، الداخر هو الصاغر الذليل الذي ذل.

* * *

وَدَلِيلُ الخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الشرح:

والخوف المقصود به الخوف الذي يكون فيه التعظيم، أما الخوف الذي يكون من سلطة متسلط ظالم أن يناله بظلمه ولكنه لا يعظمه، يخاف من بطشه وقلبه قد يلعنه فهو يبغضه ويكرهه ومع ذلك يخافه لأنه مسلط عليه، فهذا لا يكون عبادة وليس من العبادة، وهو يقع للناس كثيراً، حتى يقع للأولياء، ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]. فقال الله جل وعلا: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. يعني أنه يحميهما، فالمقصود أن هذا الخوف يسمى

خوف طبيعي، وكون الإنسان يخاف من ظالم أو من سبع أو من حية أو ما أشبه ذلك لا ضير عليه في ذلك، وإنما الخوف الذي يجب أن يكون خالصاً لله هو الخوف الذي يتضمن التعظيم أي يخافه وهو يعظمه، والخوف الغيبي مثل الذي يحصل لعباد الأولياء، يخاف أنه يطلع على ما في قلبه ثم يعاقبه، فهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا.

* * *

وَدلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

الشرح:

الرجاء هو توقع الخير، يرجوه ويتوقعه أن يحصل له، فتوقع الخير من الله عبادة، كون الإنسان يتوقعه من الله وينتظره فإنه عبادة لله جل وعلا وهو من معنى أن الله جل وعلا يجلب المنافع لعباده، فيجب أن يكون ذلك خالصاً لله جل وعلا، وكل إنسان يرجو رحمة ربه وفضله، ويخاف من ذنوبه ولكنه يرجو عفو الله ورحمته، وهذا من أفضل العبادة و يجب أن تخلص لله جل وعلا.

* * *

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

الشرح:

التوكل هو وكْل الشيء إلى من يقوم به تمام القيام، تقول: وكلت أمري إلى فلان، إذا أسندته إليه واكتفيت به. فالتوكل هو إسناد الأمر إلى من بيده

القيام بذلك والاكتفاء بتصرفه وبفعله، وهذا من أفضل الأعمال كون الإنسان يعتمد على ربه، ولكن ليس معنى التوكل ترك فعل السبب وإنما يفعل السبب ثم يعتمد على ربه في حصول المراد سواءً من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، ولا يجوز أن يكون هذا على الإنسان ولكن الوكالة التي تكون للإنسان هو أن يكل إليه ما يستطيع تصرفه من بيع أو شراء أو إتيان بحاجة أو ما أشبه ذلك من أمور ظاهرة يستطيع أن يتصرف فيها يصح أن يقال إني وكلت في هذا الشيء، يعني لابد أن يحصر ويعين ومع ذلك لا يجوز أن يقول: توكلت عليك كما لا يجوز الاعتماد على السبب لابد أن يكون الاعتماد على الله جل وعلا ثم فعل السبب؛ لأن الله هو الذي سبَّب الأسباب وهو الذي إذا شاء عطَّلها، والتوكل شرط في الإيمان؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فمعنى ذلك أنه إذا لم يحصل التوكل على الله فليس الإنسان بمؤمن.

❋ ❋ ❋

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

الشرح:

معنى ﴿حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] يعني كافيه، ومن كان الله حسبه لا يضره شيء أبداً، ولكن هذا قد لا يتحقق لكل إنسان، فلا يكون معناه أنه يقول: أنا توكلت على الله ثم لم يحصل لي مرادي؛ لأن الله علاَّم الغيوب، القلب قد يكون فيه شيء من الالتفات إلى غير الله جل وعلا أما إذا توكل الإنسان على ربه حق التوكل فلا يمكن أن يتخلف عنه مراده.

❋ ❋ ❋

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ:

الشرح:

الرغبة هي الرجاء المؤكد الذي معه حب وخضوع لمن يرجوه، وهذا لابد منه في جميع العبادات، فيرجو رجاءً متضمناً للذل والخضوع الذي معه التعظيم، والرهبة هي الخوف والخوف من العبادة، ولكن الرهبة تتضمن خوف القلب أما مطلق الخوف فهو أعم من الرهبة مع التعظيم، خوف القلب الذي يسميه الناس خوف السر يعني أنه في سر الإنسان، وعباد القبور يقولون: فلان فيه سر، يقصدون أن الولي يطّلع على ما في القلب، وأنه يتصرف في ذلك، فقد يعاقب وقد يثيب، وهذا من أعظم الشرك بالله جل وعلا ومن حصل له شيء من ذلك فهو مشرك؛ لأن الاطلاع على ما في القلب والخوف الغيبي خاص بالله جل وعلا، يجب أن يكون خالصاً لله جل وعلا وألا يكون لأحد من الخلق فيه شيء، والخشوع هو خوف القلب مع ذلك وهو قريب من الخوف ولكنه أبلغ لأنه يكون في القلب ويكون في البصر بأن تذرف العين وتدمع ويكون في السمع بأن يخشع كما قال الله جل وعلا: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

* * *

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الشرح:

يعني الأنبياء المذكورين في هذه السورة، فإنه تعالى عدد الأنبياء

وذكر لكل نبي دعوة من العبادات التي يتقرب بها إلى ربه جل وعلا، ذكر أن نوح ناداه في الكرب وأنه نجاه من كربه وأهلك عدوه بأن أغرقه ونجّاه ومن معه، وذكر إبراهيم وأنه نجاه من قومه الذين أرادوا به الكيد حينما قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. فإنهم لما عادوا ووجدوا أصنامهم محطمة بحثوا عن الفاعل فجاءوا بإبراهيم وأقاموا عليه البيِّنة ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦١-٦٣]. المقصود أنهم جمعوا حطباً كثيراً عظيماً فأججوه ناراً لينتصروا لآلهتهم ثم قذفوا إبراهيم في النار، فقال الله جل وعلا للنار: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فأصبحت روضة خضراء يصلي ويعبد ربه فيها، فجعل الله كيد الكافرين باطلاً وجعلهم الأخسرين، ونصره على هؤلاء الظلمة، وكذلك لوط لما وقع في الكرب حينما جاءت الملائكة بصورة شباب حسان الوجوه وقد فُتن هؤلاء بإتيان الذكور، بفاحشة نتنة قبيحة ما سبقهم إليها أحد من الناس، فلما رأوا أضيافه جاءوا وتسارعوا إليه يهرعون مسرعين، فصار يحاول معهم ويقول: ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨]. فحاول بكل ما أمكنه فلم يستطع، عند ذلك قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠]. يقول ذلك لشدة ما وقع فيه، فإنه كان في يوم عصيب، فلما وصلوا إلى هذا الحد أخبره جبريل وهو معهم قال: ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١]. فأومأ بجناحه فطمس أعينهم فأعماهم فلم يكتفِ

لوط بهذا بل قال: أريد هلاكهم عاجلاً، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. ولكن أسر بأهلك ولا يلتفت منكم أحد يعني إليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم.

فالمقصود أن الله نصره في هذا الموطن الحرج، وذكر موسى وهارون وأنه نجاهما من كيد فرعون، وذكر ذو النون حيث وقع في كرب عظيم، ألقي في البحر فالتقمه الحوت، فأصبح في ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت، عند ذلك نادى ربه قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فنجّاه الله جل وعلا وأخرجه من بطن الحوت إلى البر.

كذلك أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فاستجاب الله له.

وكذلك زكريا قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. إلى آخر الأنبياء الذين ذكرهم.

ثم بعد ذلك قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فأثنى عليهم بأنهم يدعونه راغبين خائفين ويكون مع الدعاء خشوع القلب والإبصار والسمع، والله جل وعلا يثني على عباده بما هو محبوب له وهو العبادة، فدل على أن هذا من أفضل العبادة، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله جل وعلا فيكون مشركاً، والأدلة على هذا كثيرة ولكن المقصود التمثيل فقط.

* * *

وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

الشرح:

والخشية أيضاً قريبة من الخوف إلا أنها تكون أخص من الخوف العام، وهذه الخشية تكون في جميع الأشياء وليست في شيء معين ويجب أن يكون المخشي هو الله جل وعلا ولا يُخشى مخلوق من المخلوقات؛ لأن المخلوق ناصيته بيد الله جل وعلا يتصرف الله جل وعلا فيه كيف يشاء ولن يستطيع أن يستقل بشيء إلا بإذن الله، فلا يستطيع أن يضر أو ينفع إلا بإذن الله جل وعلا، فإذا أخلص الإنسان خشيته لربه جل وعلا فإنه يكفيه ما أهمه.

* * *

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

الشرح:

والإنابة هي الرجوع مع العمل الذي يتضمن الذل والتعظيم، أناب إذا خضع وأذل راجعاً إلى ربه جل وعلا، وهو يأمر جل وعلا بالإنابة وهي أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام أمر عام وهو الاستسلام والانقياد لله عموماً أما الإنابة فهي أبلغ من ذلك.

* * *

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الشرح:

وهذا يجمع العبادة كلها؛ لأن العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة التي تكون في الجوارح والباطنة التي تكون في القلب و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني العبادة كلها لك؛ لأن تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ الذي يسمى معمولاً على العامل الذي هو ﴿نَعْبُدُ﴾ يدل على أن العبادة يجب أن تحصر في المُقدم ولا يجوز أن تكون لغيره، فهو يعطي معنى لا نعبد إلا أنت.

وكذلك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مثلها تدل على أن الاستعانة يجب أن تكون بالله وحده، وكون هذا يجمع العبادة كلها لا أن العبادة تكون في الشيء الذي أمر الله جل وعلا به ولا تحصل العبادة من الإنسان إلا إذا حصل العون له من ربه جل وعلا، وهذا يدلنا على أن العبد لا حول له ولا طول، وإنما الأمور كلها بيد الله تعالى، إذا من الله جل وعلا على عبده فأعانه وهداه فهو فضله، فالفضل لله ابتداءً واستدامة ونهاية، فمن وجد أنه عابد لله فليشكر ربه؛ لأن هذا فضل الله وأنه ليس من عنده شيء، لو أن الله جل وعلا منع عنه فضله لهلك، فلهذا لا تنفك العبادة عن الاستعانة، فلابد للعبادة من استعانة، فإذا لم تحصل الاستعانة ما حصلت العبادة ولهذا الأمر أوجب الله جل وعلا ذلك علينا أن ندعوه به في كل ركعة من ركعات الصلاة وهذا من رحمة الله جل وعلا بنا؛ لأنه يعلم مسيس حاجتنا إليه، ولكن يجب أن يفهم الإنسان الشيء الذي يردده في صلاته وأن

العبادة تكون لله وإذا حصلت منا فهي بعونه، ومعنى ذلك أن الفضل لك وأننا لا نستطيع أن نأتي بشكر نعمتك؛ لأن الشكر نفسه نعمة، فوقوع العبادة نعمة وشكره عليها نعمة، فلا يستطيع الإنسان القيام بحق الله ولكن يكفي أن يعترف لله جل وعلا بالفضل، وأنه مقصِّر في حقه، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**إن سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١). فسيد الشيء هو مقدمه وعظيمه وهذا سيد الاستغفار، ومعنى أبوء لك بنعمتك يعني أعترف لك بنعمتك عليَّ وأني لا أستطيع القيام بشكرها، وأبوء بذنبي يعني أعترف بأنني مذنب ولا أستطيع أن اتي بالشيء الذي يخلصني من ذنبي، وإنما هو فضلك إذ تفضلت عليَّ وعفوت عني، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يقول العلماء: هذه الآية جمعت معاني كتاب الله كله؛ لأن المقصود بإنزال الكتاب هو الأمر بعبادة الله جل وعلا والعبادة تكون بالاستعانة والاستعانة تكون في الأمور العامة والخاصة كلها، يجب أن يكون ذلك بالله، فإن كان بغير الله ضاع الإنسان وضلَّ ووكل إلى ذلك الذي استعان به، ومن وكل إلى مخلوق فقد وكل إلى عورة وضيعة وإن ظهر أنه في وقت من الأوقات يتحصل على مطلوبه فهو لا يدوم أبداً

---

(١) «البخاري» (٦٣٢٣) كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح، «سنن الترمذي» (٣٣٩٣) كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٢٦١٢) في «صحيح الجامع».

وسوف ينتهي، والمقصود أن دليل الاستعانة والعبادة عامة في هذه الآية.

* * *

وَفِي الحَدِيثِ: «... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[١].

الشرح:

هذه جملة من حديث رواه الترمذي والإمام أحمد في المسند وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا غلام، أعلمك كلمات ينفعك الله بهن: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**».

ومعنى «احفظ الله»: احفظ أوامر الله من أن تضيِّعها، واحفظ حدوده ومحارمه أن تقع فيها، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه الكلمات من أنفع ما ينبغي للإنسان أن يعتني بها، كلمات خرجت من مشكاة النبوة، وحِفظ الله جل وعلا للعبد يكون جزاءً لحفظه، وهو ينقسم إلى قسمين: حفظ خاص، وحفظ عام، فحفظه الخاص هو حفظه لأوليائه في أديانهم وقلوبهم، فلا ينصرفون عن دينهم ولا تتغير قلوبهم بالصدود عن الله جل وعلا، أما العام فهو في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وغيرها، وهذا أسهل ولكن الأول هو المهم، وعادة الله جل وعلا أنه يجعل الجزاء

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٥١٦) كتاب صفة يوم القيامة، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، وقال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٥٣٧) مسند بني هاشم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٧٨) في «صحيح الجامع».

من جنس العمل، فمن حفظ حدود الله وواجباته حفظه الله جل وعلا وإذا ضيع ذلك فإنه يُضيع وتجده في آخر عمره لا يعرف ربه ولا يعرف أين يتجه ولا كيف يتصرف، وليس معنى ذلك أن الإنسان إذا أغدقت عليه الدنيا وحصل له مراده في الدنيا أنه يكون محفوظاً بل الدنيا ستمضي وتنتهي على كل حال، ولكن المصيبة إذا خرج الإنسان منها وليس معه دين يدن الله به.

ومعنى «تعرَّف إلى الله في الرخاء» يعني: أقبل على الله بالدعاء والعبادة بفعل المأمور الذي أمرك الله جل وعلا به وزيادة من النوافل وغيرها لأنك بحاجة لذلك أشد الحاجة مادمت في عافية وحياة وصحة.

وقوله: «يعرفك في الشدة» يعني أن الإنسان الذي يكون مديماً الإقبال على ربه وذكره وعبادته أنه إذا وقع في شدة فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً منها بخلاف الذي لا يعرف ربه إلا في الشدائد فهذا قد يجاب وقد لا يجاب.

وقوله: إذا استعنت فاستعن بالله، أي للأمور المهمة؛ لأن الاستعانة عبادة، فيجب أن تكون خاصة بالله جل وعلا، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فحصر الاستعانة في الله جل وعلا.

* * *

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

الشرح:

والفلق يعني فلق الإصباح وتخليص الليل من النهار؛ لأنه لو شاء لجعل الوقت كله ليلاً ولو شاء لجعل الوقت كله نهاراً، قال الله جل

وعلا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، وكذلك بالعكس، فالله جل وعلا هو الذي يتفضل على عباده بما يحتاجون إليه، جعل لهم الليل يسكنون فيه ويرتاحون وجعل لهم النهار طلباً للمعيشة والتصرف فضلاً منه ونعمة ورحمة، فهو فالق الإصباح، والفلق هو الفعل ومجيء ذلك تفسيره بالقمر تفسيرٌ بجزء المعنى كما هي عادة السلف.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، يعني من شر المخلوق، واستدل العلماء بهذا على أن الشر لا يجوز أن يضاف إلى الله جل وعلا وإنما الشر في المخلوق، أما فعل الله جل وعلا كله خير ولا يفعل فعلاً يكون شراً، وإن كان فيه شر فهو جزئي يعني نسبي وإلا فهو خير، وعلى سبيل المثال معاقبة من يستحق العقاب يكون شراً بالنسبة له وهو خير للمؤمنين ولعباد الله جل وعلا، كما أن نزول المطر قد يكون فيه شر لبعض الأفراد كأن يهدم بيته أو يغرق ماله أو ما أشبه ذلك، ولكن خيره عام، فكل ما يفعله الله جل وعلا خير بخلاف المخلوق فإن المخلوق فيه الشر ولهذا قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، يعني من شر الذي خلق.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، والغاسق هو الشر، كل شر فهو غاسق، أما تسمية نهش الحية غاسق ونحو ذلك فهذا جزئي والمقصود الشر مطلقاً سواء كان في فعل المخلوق أو كان كامناً فيه أو في غير ذلك.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، والنفاثات: السواحر

التي تعقد العقد ثم تنفث فيها فينعقد السحر الذي تريده، وقال: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ لأن أكثر السحر يقع من النساء، فتأتي بحبل ثم تعقد عقدة فتنفث عليها بريقها النجس الخبيث المختلط بعبادة الشيطان والاستعانة به فينعقد بإذن الله الكوني القدري ما أرادته من أذى المسحور، وحله بالاستعاذة بهذه الآيات الكريمات بإذن الله، لهذا لما سحر الرسول ﷺ استعاذ بهذه الآيات ففك الله جل وعلا عنه سحره وهكذا إذا فعل الإنسان، وإن لم يكن في أول وهلة ففي المرة الثانية والثالثة والرابعة والتكرار.

* * *

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

الشرح:

الرب هو المالك المتصرف، والناس عقلاء فلا يجوز أن يقال أن لهم رب إلا الله جل وعلا.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]. يعني الذي يملكهم، فهو مالك لنواصيهم إذا أراد أن يتصرف فيهم تصرف فيهم كيف يشاء.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣]. يعني مألوههم الذي يألهونه ويعبدونه، وهذا من الأدلة على أقسام التوحيد وأنه أقسام ثلاثة: توحيد العبادة «التأله» وتوحيد الربوبية «التصرف» وتوحيد الأسماء والصفات الذي هو قريب من توحيد الربوبية ولكنه يكون بأسمائه، بأن يدعى بها وتثبت له بلا مشارك له فيها جل وعلا، فالمقصود الاستعاذة به جل وعلا وأنها يجب أن تكون به فقط.

* * *

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

الشرح:

هذا منة عليهم، حيث ذكر فضله وأنهم استغاثوا بربهم وأثنى عليهم بذلك فدل على أنها عبادة، والاستغاثة هي نوع من الدعاء، ولكنها دعاء من مكروب وقع في كرب، طلب الغوث الذي هو إنجاء من وقع في الشدة وإخراجه منها، فيجب أن يكون ذلك خاصاً بالله جل وعلا.

* * *

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٢].

الشرح:

والصلاة المقصود بها الركوع والسجود والدعاء ويدخل فيها غيرها من العبادة، والنسك يقصد بها الذبيحة التي تذبح لله مثل الأضحية والهدي والعقيقة وما أشبه ذلك أما التي تذبح لأكل لحمها فهذه تسمى نسيكة لحم ومع ذلك لابد أن يكون فيها عبادة وإلا تكون محرمة، لابد أن يسمي عليها عند ذبحها بأن يذكر اسم الله وأن تكون من مسلم، أما إن كانت من غير مسلم فهي محرمة وإن ذكر اسم الله عليها وقد أباح الله ذبيحة أهل الكتاب، وهذا من معاني قول الله جل وعلا ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. والذبيحة إذا ذبحت لمخلوق كالتي تذبح عند القبر تعظيماً لصاحبه أو للنجم أو للجني أو للكاهن وإن ذكر

اسم الله فهي شرك أُهِلَ به لغير الله، وكذلك التي يذبحها النصارى للمسيح أو غيره فهي من الشرك الأكبر، والذبيحة لها أثر عظيم في القلب، يعني النسك، يتقرب بها إلى الله ولهذا قرنت بالصلاة في عدة آيات كما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فدل ذلك على أنها من أعظم العبادات، يجب أن تخلص لله جل وعلا، فإذا وقعت لغير الله فهي شرك، وفي الآية الأخرى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. يعني اجعل الصلاة لله والنحيرة لله التي هي الذبيحة.

* * *

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

الشرح:

يعني العمل الذي أحيا عليه، وأني لم أخلق إلا لعبادة الله، فأن كل عمل أعمله في حياتي تعبداً وتقرباً إلى الله جل وعلا، وكذلك أموت على الرجاء والخوف وعبادة ربي جل وعلا وأنني راجع إليه أطلب جزائه وأدعوه أن يرحمني وأن يعفو عني ويتفضل علي، وهذا أمره جل وعلا لنبيه أن يقوله وأمته تبع له في ذلك.

* * *

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(١).

(١) «مسلم» (١٩٧٨) كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، و«النسائي» (٤٤٢٢) كتاب الضحايا، باب من ذبح لغير الله عز وجل، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٥١١٢) في «صحيح الجامع».

الشرح:

واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله جل وعلا، والله يلعن من يشاء من عباده حقيقة كما أنه يصلي على من يشاء من عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. يعني يصلي على المؤمنين، وصلاة الله معناها ثناؤه على عبده عند الملائكة وهو القول الصواب فيها، أما الصلاة من الملائكة فهي الاستغفار والدعاء مثل: اللهم اغفر له وارحمه، وكذلك من الآدميين، فاللعن ضد ذلك، ومن لعنه الله فقد بعد عن مضان الخير كلها، فالملعون هو البعيد عن الرحمة ـ نسأل الله العافية ـ والله هو الحكم العدل، إذا لعن فلعنه على من يستحق.

* * *

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

الشرح:

ووجه الدليل أن الله أثنى على هؤلاء الذين يوفون بالنذر ومدحهم، والله لا يثني على كثير النوم ولا على من يأكل كثيراً ولا على الذي يخرج يتفرج ويتنزه، يعني أنه لا يثني على الأمور المباحة؛ لأنها ليست عبادة وإنما يثني على من يفعل شيئاً يحبه الله جل وعلا، فدل هذا على أن الوفاء بالنذر عبادة، والنذر في أصله هو الإيجاب، يُقال: نذرت دم فلان إذا أوجبت قتله، هكذا يقول العرب، وهو معروف في أشعارهم وكلامهم، وهو إيجاب عبادة لم تكن واجبة، بأن يوجب الإنسان على نفسه عبادة ليست واجبة، وهو في أصل إنشائه مكروه؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «والنذر

لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من مال البخيل»[1]. فلا ينبغي للعبد أن يدخل في النذور وهو لا يقدم ولا يؤخر، بعض الناس يتصور أنه إذا نذر شيئاً أنه يحصل له ذلك الشيء مثل أن يقول إن نجحت فلله علي أن أذبح بعيراً ويتصور أن يكون لهذا أثر في نجاحه، والواقع أنه لا أثر له، فإذا قدر الله النجاح فسيقع نذر أو لم ينذر وإنما يوقع النذر الإنسان في حرج، وقد يوقعه في ذنب؛ لأنه إذا حصل له مطلوبه يثقل عليه الوفاء بالنذر وقد يعجز عنه فيكون آثماً لأنه ترك شيئاً أوجبه على نفسه وهو عبادة، ولابد أن تكون عبادة، أما إذا نذر أن يأكل شيئاً فهذا لا يوفي به؛ لأن هذا ليس بنذر عبادة أو نذر أن يصعد لذلك الجبل أو أن يذهب إلى البلد الفلاني فهذا لا يفي به لأنه ليس عبادة، وإنما النذر الذي يجب أن يوفّى به ما كان عبادة كالذبح لله بأن يذبح ويوزعها على الفقراء أو يجهزها ويدعوهم لها ليأكلوها فهذا يجب الوفاء به، فالمقصود أن الناذر يتصور أنه إذا نذر لله إذا شفى مريضه أن يتصدق بكذا وكذا أو أن يصوم كذا وكذا أو أن يذبح كذا وكذا وأن ذلك له أثر في شفاء مريضه والصحيح أنه لا أثر له؛ لأن الله سيوقع ما قدره، فالنذر لا يأتي بخير كما قال الرسول ﷺ فلا ينبغي للإنسان أن يفعله، ولكن إذا وقع منه وجب عليه الوفاء به، فالله يثني على عباده الذين إذا وقعت منهم النذور وسارعوا إلى الوفاء بها.

قوله: ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ هو يوم القيامة، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، يعني إن الله سيجازيكم عليه.

---

(١) «البخاري» (٦٦٠٨) كتاب القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، و«مسلم» (١٦٣٩) كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، صححه الألباني في «تخريج الطحاوية».

«الأَصْلُ الثَّانِي»

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ

الشرح:

ومعرفة الدين الإسلامي متوقفة على مجيء الرسول ﷺ، فلابد من بيان الرسول ﷺ، والرسول ﷺ جاء بالقرآن الذي أنزله الله عليه، وكذلك بالوحي الذي أوحاه الله إليه من غير القرآن أي السنة، فهي تبين القرآن وتوضحه، والأمر في هذا واضح جداً ولهذا اقتصر على شيء يسير جداً من الأدلة التي من الكتاب والسنة، ومعرفة أصل الدين يلزم أن يكون بالدليل ولا يجوز أن يكون بالتقليد والعادة التي يعتادها الناس، فإذا كان تدين الإنسان بالعادة التي وجد الناس عليها بأن ينظر إلى الناس ويصنع مثلما صنعوا فهذا هو التقليد، فهذا يخاف عليه أن يخرج من الدين الإسلامي ويخاف عليه أنه إذا سئل في القبر تلعثم وقال: هاه.. هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، ورأيتهم يصنعون شيئاً فصنعته، فيقال له: ما دريت ولا تليت، يعني ما علمت بلا تعلم؛ لأن الإنسان قد يعلم أمراً ظاهراً، كأن يعلم أن الصلاة واجبة، وكذلك يعلم كيف يتوضأ وكيف يؤدي زكاة ماله إذا كان عنده مال، وهكذا. فهذه أمور سهلة حتى لو أخذها بالتلقي كفى ولو لم يكن متعلم، ولهذا يقولون له: ما دريت أي ما علمت، وقولهم: ولا تليت أي ما تلوت كتاب الله وقرأته وتعلمت ذلك حتى تكون على يقين وعلى معرفة وعلى برهان ولذلك يعذب ـ نسأل الله العافية ـ فمقصوده أنه لابد من الدليل لمعرفة الدين الإسلامي الذي يلزمك.

* * *

بِالأَدِلَّـةِ.

الشرح:

والأدلة هي القولية والخلقية والفعلية، فأما الأدلة القولية فهي مثل آيات الله جل وعلا التي أنزلها على رسوله ﷺ فهي آيات واضحة ودالة على وجوب عبادته وتدل أيضاً على امتثال أمره واجتناب نهيه وهذا هو الدين، أما الأدلة الخلقية فهي كثيرة جداً في الأنفس وفي الآفاق وفي ما يحدثه الله جل وعلا من الرياح والسحاب والأمطار والإحياء والإماتة وغير ذلك، وقد ذكر الله جل وعلا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس يعني أن القادر على الخلق الكبير العظيم لا يعجزه الصغير الحقير، وأخبر الله جل وعلا فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. أما الأدلة الفعلية التي يفعلها الله جل وعلا فهي مثل الآيات التي يأتي بها الرسل والتي تكون خارقة للعادة التي يعتاد الناس عليها فهي أيضاً تكون آيات لوجوب عبادة الله جل وعلا والأخذ عن الرسل وأنهم جاؤوا من عند الله جل وعلا، وهي كثيرة جداً لرسولنا ﷺ، أو أن يعرف الإنسان دينه، وهو داخل في معرفة الله جل وعلا، لأن معرفة بلا تدين لا فائدة فيها ولابد أن يكون الإنسان عارفاً ربه ليعبده، ولكن عبادة الله جل وعلا تتوقف على أمره، فلهذا احتجنا أن نعرف الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ.

* * *

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ،

الشرح:

الاستسلام: معناه الانقياد وعدم الإباء أو التضجر، وذلك بأن ينقاد لأمر الله جل وعلا مطيعاً مذعناً ممتثلاً؛ لأنه عبد لله جل وعلا ولا خيار له في ذلك، فلا يترك ما أُمر به ويفعل ما نُهي عنه، ويقال: استسلم إذا صار مذعناً ليس لديه مقاومة ولا مدافعة بل يكون منقاداً مذعناً خاضعاً، ولا يكون هذا الانقياد بالبدن أو بالمال أو بغير ذلك بل بالتوحيد، استسلم لله يعني انقاد له بالطاعة وأصبح يتطلب ويتعرف أمر الله حتى يمتثله طاعةً لله جل وعلا ويكون موحداً في ذلك يعني مخلصاً في هذه الطاعة.

* * *

وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ،

الشرح:

وهذا تفسير للاستسلام، وانقاد بعدم الامتناع، ومعروف أن البعير إذا وضع في رأسه حبل ثم قُيد فإنه ينقاد ويتبع من يمسك بالحبل حتى لو كان طفلاً صغيراً، فينقاد معه، فالانقياد مأخوذ من هذا، والآن يقال: تقود السيارة، يعني تُصرفها وتُسيرها، فالسيارة تكون بيدك وتُصرفها كيف تشاء، فهذا الانقياد وهو ألا يكون عنده أي منازعة وأي تأبّي بل يكون مطيعاً ولا يكفي هذا بل يجب أن يكون عنده رغبة ومحبة وغبطة، فيغتبط بأنه مسلم وأنه مطيع لله ويرى أن هذا من النعم الكبيرة التي لا يوازيها نعمة، ولهذا أمر الله جل وعلا بالفرح بذلك في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ

وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]. هذا فضل ورحمة فيفرح الإنسان به، ولاسيما إذا نظر إلى الأرض فهي مملوءة بالناس الذين لهم عقول ولهم أفكار ولكن ما اهتدوا إلى هذا الخير العظيم، فلم تهدهم عقولهم ولا أفكارهم بل هم كفرة يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تأكل الحيوانات ثم مصيرهم إلى النار ـ نسأل الله العافية ـ فالانقياد يكون بالطاعة ولابد فيه من المحبة والرغبة.

* * *

وَالْبَرَاءَةُ

الشرح:

في بعض النسخ الخلوص من الشرك ولليس البراءة والمعنى واحد؛ لأن خلص معناه أنه ابتعد عن ذلك ومع الابتعاد فلابد أن يكون معادٍ له، والبراءة بأن لا يكون عنده أي تعلق لهؤلاء بل يُتبع البراءة بالبغض والكراهة والمعاداة والقتال لأنهم أعداء الله، ويجب أن تعادي عدو حبيبك ومعبودك أما أن تصافيه وتحبه فهذا من المناقضات، فلا يمكن أن تحب أعداء الله وأنت تدعي حبه جل وعلا، فهذا مستحيل وإن وجد فهو كذب من المدعي.

* * *

مِنَ الشِّرْكِ.

الشرح:

يعني عبادة غير الله جل وعلا، وعبادة غير الله أقسام كثيرة وتتنوع بتنوع ظروف الناس وعاداتهم وما يَجِدُ لهم، ففي الأول كان الشرك

بأصنام وبأشجار وبالملائكة وبالشمس وبالقمر وبالجن وبغير ذلك أما اليوم فصار الشرك بأمور أخرى: في الشهوات والرئاسات واللعب حتى يصبح الإنسان ربما يكون معبوده ملعوبه، فمثلاً قد تستولي عليه لعبة من اللعب وينسى الله وينسى العبادة وينسى كل شيء، فهذه عبادة ويدلك على هذا قول الرسول ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**»[1]، فالدينار قطعة ذهب، والدرهم قطعة فضة، والخميصة والخميلة الأول كساء يلبس والآخر فراش يوطئ، ومعناه أنه يعمل لهذه الأشياء، ولهذا قال: «إذا أعطي رضي وإذا منع سخط» فجعله عبداً، وليس معنى ذلك أنه يسجد للدينار والدرهم أو يركع له بل معناه أنه يتعلق قلبه به ويعمل من أجله، فحد العبودية أن يكون قلبك وقالبك لله.

سؤال: ماذا عن اللعب؟

الجواب: اللعب هو مثل ما ترى من لاعبين الكرة، تمر عليهم الأوقات كلها ولا يبالون بشيء وكأنه ليس هناك أوقات محددة لتصلي الصلوات فيها؛ لأن هذا الشيء قد استولى عليهم.

* * *

وَأَهْلِهِ،

الشرح:

وذلك بأن يكون مخلصاً في طاعة الله جل وعلا خوفاً من عذابه

---

(١) «البخاري» (٢٨٨٦) كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، «ابن ماجه» (٤١٣٥) كتاب الزهد، باب في المكثرين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورجاءً لثوابه ومع ذلك يجتنب الشرك ويبتعد عنه، وفي آيات كثيرة جداً يخبر الله جل وعلا أن الإيمان لا يوجد مع موادة الكافرين ودل ذلك على أنه لابد من البراءة من المشركين، وقد أمرنا جل وعلا أن نتأسى بنبيه وخليله إبراهيم في قوله جل وعلا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم استثنى جل وعلا من التأسي دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] يعني أن هذا لا تأسي فيه ولا يجوز أن يدعو المسلم للكافر، والبراءة أن يتبرأ من أفعالهم ومن مودتهم ومتابعتهم ويكون معادياً لهم مبغضاً لهم كارهاً لهم، لأنه لا يمكن أن يكون العبد مطيعاً لله و محباً لله ويكون مطيعاً للكفار وموالياً لهم، هذا ممتنع، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ثم أثنى على الصحابة الذين تبرؤوا من أقربائهم بل بعضهم حاول قتله وبعضهم قتله؛ لأنه كافر، قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وتتوقف الشهادة التي كلف الإنسان بها والتي لا خلاص له من عذاب الله إلا بها على البراءة؛ لأن الشهادة بنيت على ركنين هما: النفي والإثبات، فالنفي يدخل فيه البراءة من الشرك ولابد، أما الإثبات

فلابد أن يكون مخلصاً لله جل وعلا.

* * *

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإيمَانُ، والإِحْسَانُ، وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لها أَرْكَانٌ.

الشرح:

أي أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب، وكل مرتبة أرفع من التي قبلها، فالإسلام هو أوسعها؛ لأن الإنسان قد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً إيماناً ينجو به من كل عذاب وقد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وهذا كثير جداً، فأرفعها وأعلاها الإحسان وأولها الإسلام، أما إسلام بلا إيمان هذا لا يوجد، لابد أن يكون في قلبه تصديق للرسول ﷺ ولربه جل وعلا، والإحسان أضيق مما قبله ومعنى ذلك أن الإنسان إذا كان محسناً فلابد أنه مؤمن مسلم، وإذا كان مؤمناً فلابد أنه مسلم، ولكن قد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وقد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً الإيمان الواجب كما قال الله جل وعلا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وليس هؤلاء منافقون بل هؤلاء انقادوا في أول الأمر ولمّا يتمكن الإيمان من قلوبهم ويدخل فيه، فادّعوا أنهم مؤمنين، فنفى الله جل وعلا ذلك عنهم ثم قال بعد هذا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وفرّق الله جل وعلا بين الإيمان والإسلام في آيات عدة وهذا يدل على أن هناك فرق بين الإيمان والإسلام فقال: ﴿إِنَّ

ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. فإذا جاء أحدهما مفرداً دخل فيه الآخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فهذا يدخل فيه الدين كله، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فهذا يدخل فيه الإسلام والإيمان، أما إذا اقترن أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة كما فسره الرسول ﷺ، والإيمان يفسر بالأعمال الباطنة كما فسره به رسول الله ﷺ كما في حديث جبريل الآتي، فإنه فسر الإسلام بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام كما ذكر المؤلف هنا.

* * *

المرتبة الأولى: الإسلام.

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ:

الشرح:

الركن هو الذي يُعتمد عليه ويبنى عليه الشيء ويقوم عليه، فأركان البيت التي يقوم عليها، والأعمدة التي يبنى عليها، فإذا سقط الركن لا ينفع البناء ولا يستقر بل يسقط.

* * *

شَهَادَةُ أَن لا إله إِلا اللهُ.

الشرح:

وأصل الشهادة هو أن يخبر عما في قلبه عاملاً به عالماً به وإلا لو أخبر غير معتقد له صار كاذباً؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا عن المنافقين لما جاؤوا يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. يعني في شهادتهم لأنه كلام بألسنتهم والكلام باللسان لا ينفع لأنه لابد أن تكون الشهادة عن علم وعمل، وهذه الشهادة هي أصل الدين الإسلامي وهي تتضمن كل ما جاء به الرسول؛ لأن معنى لا إله إلا الله يعني: لا آله وأعبد إلا الله، ولا تكون العبادة إلا بأمر الله الذي جاء به الرسول، فهي تضمنت الدين كله، ولهذا قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها**»(١). يعني بحق لا إله إلا الله، من هذا فهم الصحابة أن منع الزكاة يقاتل عليه وأنه كفر، فأجمعوا على قتالهم وكفرهم مستدلين بقوله ﷺ: «**إلا بحقها**» حتى قال أبوبكر: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه»(٢)؛ لأن ذلك من حق لا إله إلا الله، والعقال هو الحبل الذي يربط به يد البعير إذا برك

---

(١) «البخاري» (٧٢٨٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، «الترمذي» (٢٦٠٦) كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: «صحيح متواتر».

(٢) البخاري (٦٧٤١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، مسلم (٢٩) كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حتى لا يذهب، يقال: عقله إذا أمسك يده بالحبل، وجاء في رواية: «لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليها»[١].

ولابدَّ للمسلم أن يكون قد عرف هذه الأركان وأتى بها على وجه الامتثال للأمر وعلى وجه مخصوص حيث بيَّنها رسول الله ﷺ ووضَّحها لنا وأخبر أن معنى شهادة أن لا إله إلا الله نفي الألوهية عن غير الله، والألوهية معناها تأله القلب وحبه وخضوعه وذله للإله، فقول: لا إله إلا الله معناه النفي بأنه لا إله، وقوله: إلا الله إثبات الإلهية لله وحده، وبهذا النفي والإثبات يكون الإنسان مخلصاً، ويجب أن يكون العلم والاعتقاد موافقاً لهذا النفي وكذلك يعمل بذلك فإذا أدَّى العبادة تكون لله وحده ولا يجوز أن يكون فيها شيء لغيره لا من حظوظ النفس ولا من المخلوقات ولا من غيرها، والنقص الذي دخل على كثير من المسلمين هو عدم معرفتهم معنى الإله ومعنى العبادة، فهم يقولون: لا إله إلا الله ويعبدون غير الله فلم يفهموا ذلك وهذا بخلاف ما كانت عليه الكفار من قريش وغيرها، فإنهم لما قال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»؛ أبوا. قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]؛ لأن عندهم آلهة متعددة مثل اللات والعزى ومناة وهبل وأساف ونائلة وغيرها من أصنامهم الكثيرة وكلها يسمونها آلهة، وتسميتها آلهة كذب تواضعوا عليه ليس لها من الإلهية شيء، ولهذا قال عز وجل: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ

(١) البخاري (١٣١٢) كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، النسائي (٣٠٤٠) كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]. يعني ما أنزل بها حجة أو برهان تعتمدون عليه، بل هو أمر تواضعتم عليه واتبعتم عليه آباءكم، وإلا فهي ليست آلهة، وكيف تكون الشجرة آلهة والحجر آلهة والميت آلهة أو الجني أو غيره من المخلوقات؟ هذه المعبودات عباد أمثالكم فكيف تعبدون أمثالكم؟ وهم لا ينفعون ولا يضرون، ولكن التقليد والأوضاع التي يعيش فيها الإنسان قد يصعب عليه مفارقتها كثيراً ولاسيما إذا كان له معظمين مروا عليها مثلما كانت الكفار تقوله لما قال رسول الله لهم: إن هذه لا تنفع ولا تضر. جعلوا هذه مسبة، وقال لهم: آباؤكم الذين مضوا يعبدون هذه الأصنام ليسوا على شيء. قالوا: إن هذا سب لآلهتنا وشتم لآبائنا. ورسول الله ﷺ ليس سبَّاباً ولا شتَّاماً وإنما يدعو إلى توحيد الله جل وعلا وعبادته وحده، فالمقصود أن تسمية مخلوق من المخلوقات آلهة أنه كذب وزور وبهتان فالآلهة هي التي يألهها القلب ويعبدها وهذا لا يصلح إلا لله جل وعلا وحده، ولهذا صارت هذه الكلمة عظيمة وهي كلمة الإخلاص وهي التي يدخل بها الكافر الإسلام ولا يصح إسلامه إلا بقولها، ولهذا قال علماء أهل السنة: الإيمان يتكون من قول وعلم وعمل، فالقول أن تقول: لا إله إلا الله، والعلم أن تعلم معناها وما دلت عليه، والعمل بأن تعمل بما دلت عليه وما تقتضيه وهو أن يكون التأله لله وحده جل وعلا.

* * *

وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله،

الشرح:

وقد بيَّن معناها قال: هي طاعته فيما أمر مع اعتقاد أنه رسول أرسله

الله جل وعلا وكلَّفه بالرسالة، ولكنه ليس إله يُعبد بل هو مكلف بإبلاغ الرسالة وأكرمه الله جل وعلا بذلك ورفع منزلته فوق الناس برسالته وقام بالأمر الذي كلفه الله جل وعلا به فصار من أعلى الناس منزلة عند الله جل وعلا وأمر بتوقيره و محبته بل أن يُحَب أكثر من محبة النفس كما جاء في الحديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[1]. وفي رواية: «**ومن نفسه**»، قال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «**لا حتى أكون أحب إليك من نفسك**». قال: أنت الآن أحب إليَّ من نفسي. فقال: «**الآن**»[2] أي الآن وصلت الواجب الذي لابد منه، ولا يجوز أن نخلط محبة الرسول ﷺ بمحبة الله؛ لأن محبة الله محبة عبادة وذل وخضوع، أما محبة الرسول فهي تبع لمحبة الله، فنحبه لأن الله يحبه، ولأن الله أمرنا بحبه، فهي محبة تكون تابعة، ولهذا نقول: محبة الرسول لله وفي الله وليست مع الله؛ لأن المحبة مع الله شرك؛ لأن «مع» تقتضي التشريك فمحبة الله شيء و محبة الرسول شيء آخر، فلا يوجد في الخلق كلهم شيء يحب لذاته إلا الله جل وعلا وما عداه فيحب لأفعاله وأوصافه التي يتصف بها، فالإنسان لحم ودم وعظام فإذا كان من صفاته أنه مطيع لله ولرسوله فتحبه لله وإذا كان بخلاف ذلك تبغضه سواء كان قريباً أو بعيداً، فكثير من الناس يلتبس

---

(١) «البخاري» (١٥) كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، مسلم (٤٤) كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «البخاري» (٦٦٣٢) كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، «أحمد» (٢٢٥٥٦).

عليه هذا الأمر ويقع في الشرك، فلابد أن يتيقن الإنسان بقلبه يقيناً أنه رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق وأوحى إليه أمره الذي بلغه عباده وأن الله جل وعلا لا يعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ بشر ليس نوراً ولا ملكاً بل هو بشر خصَّه الله بالرسالة، ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [فصلت: ٦]. فتميز عنا بالوحي وبأن الله أكرمه بالرسالة وهي أعلى مقام يمكن أن يناله البشر يتفضل الله جل وعلا به على من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم لابد من محبته ﷺ حباً أكثر من حب الإنسان لنفسه ولولده ولوالده، وتكون هذه المحبة لله وفي الله، فتحبه لأن الله يحبه ولأن الله أمرك بحبه، ثم علامة محبته أن تطيعه كما قال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فلابد من اتباع الرسول ﷺ لمن يكون يحبه، أما أن يدعي حبه وهو يخالف أمره ويرتكب نهيه فهذه دعوى ولابد لها من برهان وإلا لا تقبل، ومعناها الذي يجب أن يكون المسلم عارفاً به أنه رسول تفضل الله جل وعلا بإكرامه وأكرمه وأوحى إليه شرعه وأن الله لا يُعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ يُطاع ويُتبع ولا يُعصى أمره ولا يُرتكب نهيه ﷺ وأنه بلغ ما أمره الله ببلاغه.

ولما كانت عبادة الله جل وعلا متوقفة على مجيء النص بأمره ونهيه صارت شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ركناً واحداً، فلو شهد الإنسان أنه لا إله إلا الله ولكنه لم يشهد أن محمداً عبد الله ورسوله فإنه لا يكون مسلماً، فلابد أن تقترن شهادة أن لا إله إلا الله بأن محمداً رسول الله.

❊ ❊ ❊

وَإِقَامِ الصَّلاةِ،

الشرح:

وجاء بلفظ الإقامة بل كلما ورد الأمر بالصلاة فإنه يأتي بهذا اللفظ، فالنصوص التي جاءت كلها تكون بلفظ الإقامة ولابد أن يتأمل الإنسان معنى الإقامة وهي أن تكون الصلاة قائمة وليست معوجة ولا ناقصة وقيامها أن يأتي بها الإنسان على الوجه الذي أمر به، بأن يأتي بأركانها وشروطها وواجباتها، أما السنن فلا يأثم من يتركها وإنما يأثم بترك الشرط لأن الشرط لا يصح المشروط إلا به، مثل الطهارة واستقبال القبلة وستر العورة والنية ومن أركانها مثل القيام والركوع والسجود وهكذا، أما السنن فالإتيان بها أفضل، ومن أعظم ما يجب فيها هو حضور القلب لأنه جاء في الحديث أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما عقل(١)، وحضور القلب هو أن يعرف الإنسان أنه قام بين يدي الله وأنه يؤدي الصلاة وأنه يكبر ويقرأ ويتأمل حالته ويجتهد في أن يخشع لله، والخشوع الذي هو فعل القلب، هذا ليس فرضاً ولا واجباً ولكنه فضيل وأثنى الله جل وعلا على الخاشعين في الصلاة، والصلاة المقصود بها الصلوات الخمس التي فرضها الله في كل يوم وليلة لا يجب على الإنسان من الصلاة إلا هي كما جاء في حديث معاذ حينما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن وبعثه في السنة العاشرة من الهجرة التي توفي فيها الرسول ﷺ فإنه قال: **«إنك ستأتي قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك فأعلمهم أن الله كتب عليهم في كل**

---

(١) تخريج أحاديث الإحياء.

يوم وليلة خمس صلوات»[1]. ولم يذكر غيرها كالوتر والرواتب وغيرها فهذا هو المتعين على الإنسان وأما غيرها كالوتر والسنن الرواتب ليست واجبة ولكن يثاب عليها الإنسان، وهذا لا يدعو الإنسان أن لا يكثر من الصلاة، بل ينبغي أن يكثر من الصلاة لأنها صلة للعبد بربه، والرسول ﷺ لما سأله رجل مرافقته في الجنة وكان يخدمه ويقدم له الوضوء وغير ذلك ففي يوم من الأيام قال له: «سل». قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أوغير ذلك» قال: هو ذاك. قال: «إذن أعني على نفسك بكثرة السجود»[2] فكثرة السجود معناها كثرة الصلاة، وقد أثنى الله جل وعلا على المصلين وعلى الخاشعين في صلاتهم، والمقصود أن الركن الثاني من أركان الإسلام هو الصلاة وأنه جاء بإقامتها، فينبغي للإنسان أن يعتني بها وأن يأتي بها على الوجه الذي تبرأ ذمته في أدائها لله جل وعلا، وقد جاء الوعيد على من كان يهمل صلاته ولا يدري هل هو في المسجد بين يدي الله أو في السوق يبيع ويشتري ولهذا إذا كان الإنسان مهملاً في صلاته ولا يدري ماذا صلى ولا يدري ماذا تكلم به ولا يدري ماذا قرأ تلف الصلاة كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني[3]، أما إذا كان محافظاً عليها وعلى أركانها وشروطها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مسلم» (٤٨٩) كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، «النسائي» (١١٣٨) كتاب التطبيق، باب فضل السجود، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٤٠٥٠) في «صحيح الجامع»..

(٣) «مصنف عبدالرزاق»، والطبراني في «المعجم الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

وواجباتها فإنها تصعد إلى الله جل وعلا ولها نور وتقول: حفظك الله كما حفظتني، ثم جاء أن الإنسان إذا كان مقصراً في صلاته أن الله يقول لملائكته: «**انظروا هل له تطوع**»[١] يعني صلاة، فيكمل الواجب من تطوعه، ولهذا ينبغي أن يكثر الإنسان من التطوع.

❀ ❀ ❀

وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،

الشرح:

وأداؤها يعني وضعها حيث أمر الله جل وعلا أن توضع، وقد أمر الله جل وعلا أن تكون للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وهذه الأصناف التي يجب أن تؤدى الزكاة إليهم ولو أديت إلى صنف واحد منهم لكفى.

وبدأ بالفقراء لأنهم أكثر حاجة من المساكين، ولأن الله جل وعلا لما ذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر وأخبر أن المساكين لهم سفينة قال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ [الكهف: ٧٩]. سماهم مساكين وعندهم سفينة يعملون عليها، ولهذا يقول الفقهاء: الفقراء أكثر حاجة من المساكين، ويعرفون أن الفقير هو الذي لا يجد كفايته في السنة والمسكين من يجد بعضها، لهذه الآية ونحوها، ولأن الله بدأ بهم والله يبدأ بما هو أولى أن توضع له الزكاة كما في غير هذا الموضع كما قال

---

(١) «سنن الترمذي» (٤١٣) كتاب الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، «النسائي» (٤٦٥) كتاب الصلاة، باب المحاسبة على الصلاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرسول ﷺ حينما بدء بالطواف قال: «نبدأ بما بدأ الله به ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]»[1]. وإذا أديت إلى الإمام كفى ويكون هو الذي يتولها ويضعها مواضعها، ولابد أن يخرجها طيبة نفسه بها يرجو ثواب الله جل وعلا ويخاف عقابه لو منعها، والزكاة تكون من أصناف الأموال كل مال زكاته منه فالنقود زكاتها منها والحبوب زكاتها منها أي من نفس الحبوب وكذلك الثمار مثل التمر فزكاته منه، حتى لو باع الإنسان نخله برؤوسه فيخرج الزكاة تمراً حتى لو يشتريه والطريقة في مثل هذا أنه يخرفها إذا استوت وهي في رؤوسها ثم يعلم قدرها ويؤدي الزكاة، وتفاصيل الزكاة معروفة في كتب الفقه.

* * *

وَصَوْمُ رَمَضَانَ،

الشرح:

ومعنى الصيام: الإمساك، يقال: صام النهار إذا تخيل أن الشمس وقفت، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات سواء المأكولات والمشروبات أو من غيرها التي تفسد الصوم كالاتصال بالزوجة وما أشبه ذلك ويكون ذلك من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، والواجب هو صوم شهر رمضان فقط إلا أن ينذر الإنسان صوماً فيجب عليه أن يفي

(١) «مسلم» (١٢١٨) كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، «سنن الترمذي» (٨٦٢) كتاب الحج، باب ما جاء أنه يبدأ بالصفا قبل المروة، من حديث جابر رضي الله عنه.

بنذره؛ لقول الرسول ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»(١).

❁ ❁ ❁

وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ.

الشرح:

والحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: هو قصد بيت الله الحرام في وقت معلوم محدد وهي أشهر الحج لأداء المناسك التي أمر الله جل وعلا بها وبيَّنها الرسول ﷺ بفعله وقوله ﷺ، والحج لا يجب على المسلم إلا مرة واحدة في عمره كله، فإذا أدَّاه مرة سقط الواجب عنه ويبقى التطوع إذا شاء، والله جل وعلا يندب عباده إلى الخيرات والتسابق فيها؛ لأنه بالأعمال تقسم درجات الجنة، فهذه أركان الإسلام التي لابد من فعلها ولا يجوز ترك شيء منها.

❁ ❁ ❁

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

الشرح:

هذه جزئية بسيطة وإلا فأدلة الشهادة كثيرة جداً، ويكفي الإنسان في دينه أن يعرف دليلاً من الأدلة، فإن كثرت الأدلة فهذا خير.

شهادة ألا إله إلا الله لابد أن تكون عن علم ويقين ومعرفة وأن يكون

---

(١) «البخاري» (٦٦٩٦) كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، «سنن الترمذي» (١٥٢٦) كتاب النذور والأيمان، باب من نذر أن يطيع الله فليطعه، من حديث عائشة رضي الله عنها، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٦٥٦٥) في «صحيح الجامع».

عاملاً بها، وقد ذُكر لها ثمانية شروط، ومعنى شروطها أي أنها لا تنفع إلا إذا اجتمعت هذه الشروط وهي:

الأول: العلم المنافي للجهل: وهو أن تعلم معناها ولا يجوز للإنسان أن يكون جاهلاً بهذا، ولهذا تجد الجاهل بمعناها يأتي بما يناقضها وهو يقولها، مثل الذي يأتي إلى القبر ويستنجد بصاحبه ويطوف حوله ويدعوه وهو يقول: لا إله إلا الله، فهذا تناقض فلو عرف معنى لا إله إلا الله ما فعل هذه الأفعال؛ لأن لا إله إلا الله تنافي ذلك، فكل عبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده.

الثاني: اليقين المنافي للشك، ولكن هذا قد يشكل على بعض الناس، فيقال: كيف تقولون العلم ثم تقولون اليقين؟ أليس اليقين داخل في العلم؟

الجواب: إن المقصود ليس مجرد الاستدلال بعلم ذلك بل لابد أن يتحلى به ويتيقنه، وإن كان داخل في الأول إلا أنه إيضاح وبيان؛ لأن العلم في هذا لابد أن يكون يقيناً لا يقبل التردد والشك، حتى إذا شكك الإنسان لا يشك.

الثالث: القبول،وهو أن يقبل هذه الكلمة ومعناها ولا يرد شيئاً منها ولا من حقوقها.

الرابع: الانقياد، ويقابله التأبي وعدم الاستسلام.

الخامس: الصدق المنافي للنفاق؛ لأن المنافق يقول لا إله إلا الله وهو كاذب، فلابد أن يكون صادقاً في قولها ولا يكون كاذباً؛ لأن الكذب من النفاق.

السادس: المحبة، بأن يحبها ويغتبط بها كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. يعني أنه يرى أنه غنم مغنمة عظيمة لكونه صار من أهل لا إله إلا الله.

السابع: الإخلاص، وينافي الرياء بأن يكون العمل لله وحده خالياً من الرياء لئلا يبطل العمل.

الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله.

* * *

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ،

الشـرح:

قال: «بحق» حتى تكون المعبودات كلها باطلة.

* * *

وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

الشـرح:

لأن «لا» نافية للجنس، والجنس كقولك: رجل أو امرأة أو شجرة أو بقرة، فلو قلت: رجل فأنت لا تعني رجلاً معيناً بل هو يشمل كل من كان بهذا الاسم، وإذا قلت: امرأة، فهو يشمل جميع النساء، فكل امرأة يجوز أن يطلق عليها هذا، كذلك شجرة وبقرة وما أشبه ذلك، فهذه تسمى أسماء جنس، ومعنى جنس أنه شائع وليس معين ويصح أن يطلق على أي نوع من هذه الأنواع، بخلاف إذا قلت: الرجل. فأنت عيَّنت لأنك جئت بأل وهي تكون إما للتعرف وإما للعهد؛ لأنه معهود عندك وعرفته، فهنا

قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾، وإله اسم جنس ومعناه أنه شائع ويصح أن يكون كل مألوه سواءً كان شجرة أو صنم أو قبر أو جني أو شمس أو قمر أو غيرها، ويقول العلماء: إن هذا التقييد الذي جاء هنا يسمى حصر، فـ«لا» تدخل إلا على الأجناس وهي تعمل عمل إن، وإن تدخل على المبتدأ والخبر فتنصب الأول ويصير اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها، ولكن الغالب أن خبرها يكون محذوفاً ويكون مقدراً، وهذا شيء معروف عند النحويين ولكنهم غلطوا في إعراب «لا إله إلا الله» غلط فاحش جداً، فلو رجعت إلى كتب النحو وجدت أكثرهم يقولون في إعرابها: لا إله موجود إلا الله؛ لأنهم يشترطون أن يكون الخبر المحذوف مشتق فلابد أن يكون إما اسم فاعل أو اسم مفعول أو جملة أسمية أو خبرية، فقالوا الخبر: موجود، وهذا في الواقع كذب، فكيف يقولون لا إله موجود إلا الله والدنيا مملوءة من الآلهة؟

فأصبح هذا الإعراب خلاف ما يراد من هذه الكلمة، والعلماء يقولون: تقدير الخبر لا إله معبود بحق، لأننا لو قلنا: لا إله معبود صارت مثل لا إله موجود، وهذا لا يصح.

ومعروف أنه عند الإعراب يفهم الكلام وتفهم المعاني، ولهذا أول ما يبدأ فيه طالب العلم هو مبادئ معرفة الإعراب وكون الكلام له تقديرات ورابط ونحوها ليعرف المعنى المقصود، ولهذا قال هنا: «لا معبود بحق» يعني هذا هو الخبر المقدر وهو معناها المراد.

❊ ❊ ❊

(إلا اللهُ) مُثْبتاً العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ،

الشرح:

«إلا» مثبتة الإلهية لله جل وعلا، وهذا من أبلغ الكلام، النفي والإثبات، لأنه يجعل الشيء المقصود محصوراً بما ذكر فقط، ولا يجوز أن يعدوه إلى غيره، فيكون المعنى: لا يجوز التأله إلا لله وحده فقط، وتركيب الكلام لأجل هذا، والعرب يعرفون هذا تماماً، ولهذا لما قال لهم رسول الله: «**قولوا لا إله إلا الله**»؛ أبوا أشد الإباء، وقالوا: هذا يبطل آلهتنا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. فهذا هو المقصود، أن يكون التأله لله وحده وهو معنى لا إله إلا الله، فهنا إثبات العبادة لله والأول نفي للتعبد وأن الإله اسم جنس وهو يطلق على كل مألوه سواءً كان عاقلاً أو غير عاقل وسواءً كان ذاتاً تُرى أو معنىً ويقول العلماء تبعاً لما بيَّن الله أن أعظم معبود تحت أديم السماء في الأرض هو الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فالهوى هو ما يهواه الإنسان واتبعه من الشهوات وغيرها وهو معنى ولكنه يطلق على أشياء كثيرة، فالعبادة تكون له جل وعلا وحده لا شريك له في عبادته.

* * *

كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ

الشرح:

فليس له شريك لا في ملكه ولا في خلقه، وهذا أمر لا ينكره أحد وكل الكفار يقرون به، أما الشروط التي يقولون أنها شروط لا إله إلا الله فهي مأخوذة من هذا.

* * *

وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

الشرح:

استثنى من المعبودات ربه وهو معنى لا إله إلا الله، ومعنى فطرني خلقني ابتداءً، جاء رجلان يختصمان عند الرسول ﷺ في بئر، فقال أحدهم: أنا فطرتها، قال الآخر: أنا ورثتها عن آبائي، فطرتها يعني أنا الذي بدأت حفرها وأوجدتها.

* * *

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٧-٢٨].

الشرح:

يعني أن الهداية بيده تعالى يهديه إلى الصراط المستقيم، الضمير في قوله: ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ يعود لكلمة التوحيد، فعبر عنها بالمعنى ثم أعاد الضمير إليها، وجعلها باقية في عقب إبراهيم أي في ذريته، فلا يزال في ذريته من هو مخلص وموحد لله جل وعلا سواء من الذكور أو الإناث.

* * *

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨].

الشرح:

أي يرجعون لهذا الشيء ويكون لهم دعوة إلى الله، وكان من آخرهم من الأنبياء محمد؛ لأن كل نبي بعث بعد إبراهيم من ذريته، فلم يبعث نبي من غير ذرية إبراهيم بعده.

* * *

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشرح:

يعني نستوي كلنا فيها، لا يكون بيننا من يكون له خصوصية.

❁ ❁ ❁

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشرح:

وهذا معنى لا إله إلا الله.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشرح:

وهذا ينافي لا إله إلا الله، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] فهو تأكيد لعبادة الله وهو كوننا لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً.

❁ ❁ ❁

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشرح:

يعني إن أبوا قبول ما دعوتموهم إليه، فأشهدوهم على أنكم مسلمون، ومعنى هذا أنكم تتبرؤون منهم ومن عبادتهم، ومن الآيات الواضحة في هذا ما ذكره الله جل وعلا في دعوة هود لقومه في سورة

الأعراف قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ [الأعراف: ٧٠]. فهذا يدلك على أن المقصود أن تكون العبادة لله وحده؛ ولهذا صرحوا بذلك.

* * *

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الشرح:

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦]. وهناك آيات كثيرة تدل على هذا.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام يقال أنها موطئة للقسم و«قد» للتحقيق والقسم مقدر تقديره: والله لقد جاءكم رسول، وذكر ﴿رَسُولٌ﴾ لتعظيمه.

قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني تعرفونه وتعرفون صدقه وتعرفون نشأته وتعرفون أمانته ولا يخفى عليكم، وهذا من فضل الله كونه يكون منا ونعرفه وبلغتنا هو من أعظم النعم.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ عزيز يعني أنه يشق عليه ذلك، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني من الشيء الذي يعنتكم وأعظمه الوقوع في الشرك.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني حريص على هدايتكم، وهو رؤوف يرأف بهم ويرحمهم مبالغة وفي المقابل شديد على الكافرين كما قال جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.

الشرح:

أن نطيعه فيما أمرنا، ونصدقه فيما جاءنا به وأخبر به، واجتناب الأمور التي ينهى عنها، وأن يُتعبد الله جل وعلا بشرعه الذي شرعه وجاء به وألا يُعبد الله بغير ذلك، فصار معنى شهادة أن محمداً رسول الله الدين كله مثل شهادة ألا إله إلا الله، ومع ذلك فالشهادتين كلاهما ركن واحد ومرتبطتين ولا يمكن أن يقبل واحدة من دون الأخرى، فلو شهد الإنسان ألا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله فهو كافر، ولو شهد أن محمداً رسول الله ولم يشهد ألا إله إلا الله فهو كافر، ولهذا أبوطالب عم النبي ﷺ كان يصدقه ويقول: هو رسول، ولكن لم يتابعه، ويقول أنه لا يكذب ولا يعني بالأباطيل كما قال في قصيدته، لهذا لما جاءه الموت رجا الرسول ﷺ أنه يقول لا إله إلا الله، لأنه إذا قالها فهو يقولها عن

معنى، فجاءه وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية، وهذا من أعظم الضرر أن يكون عند الإنسان جلساء السوء، فقال له: يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فنظر إليه كأنه يمكن يفكر أو يقول، فقال له أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟

وهذا معناه أنك إذا قلت هذه الكلمة خرجت عن ملة عبدالمطلب، وملة عبدالمطلب هي الشرك وعبادة الأصنام، فأعاد عليه الرسول ﷺ قوله، فأعادا عليه نفس الكلام: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فمات على ملة عبدالمطلب[1]. فالشاهد أنهم يعرفون أن قول لا إله إلا الله ليس مجرد كلام أو نطق بل المقصود بها أن يكون المعبود هو الله وحده، وكل عبادة لما سواه تكون باطلة مجتنبة، والناس في رسول الله ﷺ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جفاة ولم يرى حقه، وهذا كفر بالله.

القسم الثاني: من غلا فيه وأنزله فوق منزلته، وهذا باطل.

القسم الثالث: من توسط، فعلم أنه رسول وأحبه الحب الواجب واتبعه وتعبد الله بالشرع الذي جاء به.

* * *

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البينة: ٥].

(١) البخاري (١٢٧٢) كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، مسلم (٣٥) كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

الشرح:

وهذا خطاب لأهل الكتاب والمشركين كلهم؛ لأنه في أول السورة يقول: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١]، والأمر الذي جاءهم هو هذا، وهذا يدلنا على أن الصلاة مفروضة على من قبلنا، ولكن ليست على هذه الصفة، وكذلك الزكاة كانت مفروضة على من قبلنا، وأما إخلاص الدين والعبادة لله فلا إشكال فيه، وكل الرسل تأمر به.

* * *

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

الشرح:

يعني الدين القيم الذي يجب أن يُتبع.

* * *

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الشرح:

واستدل بهذا على أن ترك الحج كفر إذا تركه مع الاستطاعة والتمكن، قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. لا يكون دليلاً لأنه أمر بالإتمام لمن شرع فيهما، فإذا شرع فيه وجب عليه أن

يمضي فيه أما ابتداء فليس هناك أمر.

* * *

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: الإِيمَانُ.

الشرح:

الإيمان: وهو التصديق بالقلب والعمل بالجوارح والقول باللسان، قول لا إله إلا الله لابد منه أو يقول آمنت بالله ومثل قوله جل وعلا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ومعنى آمنت بالله أنه يقول: لا إله إلا الله ولا يعبد إلا الله جل وعلا، ثم يعمل لأن العمل من الإيمان، ولهذا يُعرفون الإيمان بأنه قول وعمل واعتقاد، يعني اعتقاد القلب من النيات والخشية والخوف والرجاء.

* * *

وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً،

الشرح:

وهذا لفظ حديث عن النبي ﷺ وهو حديث ثابت في الصحيحين غير أن هذا لفظ مسلم، أما في البخاري «بضع وستون شعبة»(١)، والبضع: هو

(١) «البخاري» (٩) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، وقول الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، و«مسلم» (٣٥) كتاب الإيمان، باب الإيمان وشعبه وفضيلة الحياء، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجزء، يعني أنه أجزاء كثيرة تجتمع، والبضع من الثلاثة إلى التسعة.

❊ ❊ ❊

فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ،

الشرح:

وهو قول ولكن لابد من عقيدة القلب، وهذا القول يشمل الدين كله، ويدلنا هذا على أن الإسلام داخل في ذلك؛ لأننا قلنا أن من أركان الإسلام شهادة ألا إله إلا الله.

❊ ❊ ❊

وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ،

الشرح:

يعني إزالة الشيء الذي يؤذي الناس الذين يمرون في الطريق، وهذا فعل وعمل تعمله، وهذه شعبتين.

❊ ❊ ❊

وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ(١).

الشرح:

والحياء خلق يقتضي الانفعالات الحاصلة من الشيء الذي يستحى منه فيمنع الناس من فعل ذلك، فهذه ثلاثة شعب، وقال: «بضع وسبعون» فبقي سبعون شعبة.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم، ورواه الحافظ بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان». من طريق عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كَمَا فِي الحديث «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ،

الشرح:

وهو التصديق الجازم بوجود الله جل وعلا وبأنه عليم بكل شيء ومحيط بكل شيء وقادر على كل شيء وأنه الخالق لكل شيء وأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وأنه الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وأنه الإله الحق الذي لا يجوز أن يعبد غيره، وقد تَعرَف الله جل وعلا إلى عباده بأسمائه وأوصافه كما تَعرَف إليهم بأفعاله ومخلوقاته فيجب أن يعرفه الإنسان على ما وصف به نفسه جل وعلا وكلما ازداد معرفةً ازداد إيماناً يعني كلما تعلم وتفهم وتفقه في صفات الله وفي أفعاله ومخلوقاته زاد علماً وإيماناً بالله جل وعلا، والإيمان عند أهل السنة يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فقد ينقص حتى لا يبقى منه إلا شيء قليل وقد يزول لأن المعاصي كما يقول العلماء بريد الكفر ودهليز إليه فقد يزداد معاصي ثم تتراكم ثم يترك الإيمان ويدخل في الكفر وبالعكس فقد يزداد إيماناً إلى أن يصل إلى اليقين، ولهذا اختلفت مراتب المؤمنين ومنازلهم في الجنة وقد جاء في الصحيح في الرؤيا التي قصت على النبي ﷺ وأقرها، أن أحد الصحابة قال: رأيت كأن ميزان وضع فوزنت بالأمة فرجحت بها ثم وزن أبوبكر فرجح بالأمة[1]، فإيمان رجل واحد يكون أرجح من إيمان الأمة كلها، ومعلوم أن إيمان الرسل والملائكة ليس كإيمان آحاد الناس، فإيمان قد

---

(١) صحيح، رواه أبوداود (٤٦٣٤-٤٦٣٥) من طريقين عن أبي بكرة، والحديث مخرج في «ظلال الجنة» (١١٣١-١١٣٣) و(١١٣٥-١١٣٦). أهـ ألباني.

يعتريه الشك ولو شكك الإنسان لدخل عليه الشك وإيمان ثابت ثبوت الجبال ما يتزعزع ثم هو كذلك يزيد كلما زاد عملاً وقد ثبت النص على زيادة الإيمان في آيات كثيرة كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وكذلك نظيرها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ويقول الله جل وعلا في آخر ما أنزل على نبيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. قال البخاري في صحيحه: باب الدليل على أن الإيمان ينقص. ثم ذكر هذه الآية، ووجه الاستدلال أن الذي كمل قبل كماله كان ناقصاً وليس هذا لكل أحد وكلما نزل شيء من العلم ومن الفرائض يزداد به العامل إيماناً، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وأما غيرهم من أهل الرجس والنفاق فهم يتركون العمل ولا يؤمنون بذلك فيزدادون رجساً على رجسهم. نسأل الله العافية. ولهذا يقول العلماء: إنه ما جالس كتاب الله رجل إلا ازداد خيراً أو نقص إيمانه؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. فالمقصود أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿كَلَّا

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. فالإيمان يدخل فيه العلم ويدخل فيه القول ويدخل فيه العمل وهو يتكون من هذه الثلاثة الأشياء وإذا فقد واحد منها فقد الإيمان، ولكن إذا وجد إيمان القلب وإقراره ويقينه لابد من وجود العمل ولا يمكن أن يقال هذا مؤمن موقن ثم يتخلف العلم وإنما هذا قد يكون تقديرات لا وقوع لها يقدرها بعض الناس كأن يقال إنسان آمن ولكنه لم يصل ولم يزك ولم يصوم فهذا تقدير غير واقع، فإذا آمن فلا يمكن إلا أن يعمل أما إذا وجد هذا فمعنى ذلك أن الإيمان لم يصل إلى قلبه ولم يتحلى به.

* * *

وَمَلائِكَتِهِ،

الشرح:

ونؤمن بأعيانهم الذين ذكروا لنا وسموا لنا مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك، فيجب أن نؤمن بأعيانهم ونعلم أنهم عباد مكرمون ولا يعصون الله ما أمرهم ويأتمرون بما أمرهم الله وأنهم خلقوا للعبادة ويسبحون الليل والنهار لا يفترون دائماً وهم كثيرون جداً، أما الذين لم تذكر لنا أسماؤهم فمنهم من نعرفه بالوظائف التي ذكرت لهم مثل الحفظة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. فكل واحد منا معه أربعة ملائكة كرام اثنان في النهار واثنان في الليل يتعاقبون كما قال الرسول ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، يجتمعون في صلاة العصر وفي صلاة الفجر، فإذا صعدوا سألهم الله جل وعلا: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: يا رب أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم**

يصلون»[1]. ينزلون في صلاة العصر يستمعون فيصعد الذين نزلوا صلاة الفجر ويبقى الذين يبيتون معنا، فإذا جاءت صلاة الفجر نزل أولئك فأعقبوهم، والله يسألهم حتى يظهر ذلك عند الملائكة الذين لا يعرفوننا ولا لهم صلة بنا، فإذا سمعوا هذا قالوا: إذن هؤلاء وقتهم كله صلاة فيدعون ويستغفرون لنا، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧-٨].

فهذا من فضل الله تعالى وكرمه وجوده، ولكن المشكلة إذا جاؤوا والإنسان نائم أو يلعب وقد غفل عن الصلاة ماذا يقولون؟

وإذا مات الإنسان لا يذهبون إلى إنسان آخر يبقون يحفظون عمله ويقول بعض العلماء: أنهم يبقون يستغفرون له، وهذا فضل من الله.

ومنهم الموكلون بقبض الأرواح، فملك الموت معه أعوان له كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ

---

(١) «البخاري» (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

﴿أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]. فقال: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ولم يقل المَلَك، وتبشرهم بعدم الخوف والحزن، وهؤلاء ينزلون إليه عند خروج الروح ويشاهدهم، ولهذا قال الرسول ﷺ: **«تقبل توبة العبد ما لم يعاين»**[(١)] يعني يعاين الملائكة فإن عاينهم فذلك يعني أنه قد فارق الدنيا ولا يقبل منه عمل ولا توبة.

وقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]. يعني لا تخافوا مما أمامكم ويستقبلكم فأنتم مكرمون، ولا تحزنوا على ما تركتموه من الدنيا من أهل وولد ومال، فالسعيد هو الذي يبشر بهذا وهو الذي بنى مستقبله بناءً صحيحاً سليماً وصار مطمئناً، فإذا وضع في قبره فتح له باب إلى الجنة يأتيه من روحها ونعيمها وريحانها ويفسح له في قبره وينور له فيه ويكون مد البصر أو أكثر فيكون في روضة، وإن كنا لو كشفنا عنه لوجدناه على الحالة التي دفن عليها أو قد مثلاً تأكل الأرض عظامه ولكن روحه منعمة وكذلك الأجزاء التي أكلتها الأرض تحس بالنعيم، والإنسان في القبر كما سيأتي إما في نعيم أو في جحيم ـ نسأل الله العافية ـ ونعيمه يكون خاصًّا به حتى لو قبر معه مقبوراً آخر، فنعيم هذا لا يصل إلى هذا، وعذاب هذا لا يصل إلى هذا، وإن كانوا في قبر واحد، والله لا يعجزه شيء تعالى وتقدس.

والذين يتنزلون على الذين كفروا معهم سياط من النار يضربون

---

(١) ابن ماجه (١٤٤٣) كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في المؤمن يؤجر في النزع، وعبدالرزاق في المصنف، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وجوههم وأدبارهم يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فيبدأ العذاب من ذلك الوقت، ولهذا نقول: إن المؤمن المتقي أشد ما يلاقي الموت، وما بعد الموت أسهل منه، بل ينتقل من نعيم إلى ما هو أفضل وأكمل وأوسع، أما الكافر والمنافق أسهل ما يلاقي الموت وما بعد الموت أشد، وينتقل من شدة إلى شدة إلى أن يصل إلى جهنم وكل هذه الأمور سنعايشها ولابد، فيجب أن يفكر الإنسان فيها وأن يعمل ولا ينساها، ولهذا كثيراً ما يوصي ﷺ ويقول: «**لا تنسوا هاذم اللذات**»(١) وهو الموت، ويكون ذكره ليستعد الإنسان ويتهيأ كما قال أيضاً في وصيته: «**لا تنسوا العظيمتين: الجنة، والنار**»(٢)؛ لأن المصير إليهما.

ومن الملائكة من كان موكلاً في القطر والنبات وسوق السحاب، ومنهم الذين وكلوا بالأرحام، فيأتي الملك ويدخل في رحم المرأة عندما يمضي على النطفة مئة وعشرون يوماً، فيسأل: يا رب، ذكر أم أنثى؟ ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل: شقي، أم سعيد؟

فيأمره الله ويقول له: اكتب كذا، فيسجل بالصحيفة معه ويطويها ولا يزاد عليها ولا ينقص، فهذه الكتابة وهو في بطن أمه لم يخرج إلى الدنيا، وقبل هذه الكتابة كتابة وقبلها كتابة أخرى، ومن الملائكة الذين في

---

(١) «الترمذي» (٢٣٠٧) كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في ذكر الموت، و«النسائي» (١٨٢٤) كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير»، والدولابي في «الكنى والأسماء»، والحافظ ابن حجر العسقلاني في «المطالب العالية»، وأبي نعيم في «صفة الجنة».

السماء كما جاء في الحديث: «**أطت السماء وحق لها أن تأط ليس فيها موضع قدم إلا وملك راكع أو ساجد أو قائم**»(١) إلى قيام الساعة. والأطيط هو صوت الشيء الذي صار له صرير من الحمل.

ويقول الرسول ﷺ في حديث المعراج: «**إنه رأى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو حيال الكعبة** ـ أي مقابل لها من فوق ـ، **تتعبد فيه الملائكة، وإذا يدخله في اليوم سبعون ألف لا يعودون إلى مثله أبداً**»(٢)؛ لأنه لا يحصل لهم من كثرة الملائكة الذين يترددون عليه فالذي يأتيه مرة لا يأتيه مرة أخرى؛ لأنه لا يتهيأ له من الكثرة، ومن الملائكة الذين وكلوا في النار بوقودها وتعذيب أهلها، ومنهم الموكلون بالجنة وغير ذلك مما ذكره الله جل وعلا، فيؤمن بهم حسبما ذكر.

* * *

وَكُتُبِـهِ،

الشرح:

الكتب التي ذكرت لنا بأعيانها نؤمن بها بأسمائها مثل التوراة والإنجيل والزبور، والقرآن مهيمن عليها نؤمن به وبكل حرف منه، فمن كفر بحرف واحد منه يكون كافراً، وقد بدء بالحمد وختم بسورة الناس

---

(١) «الترمذي» (٢٣١٢) كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**»، و«ابن ماجه» (٤١٩٠) كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٢٠) في «صحيح الجامع».

(٢) «البخاري» (٢٣٠٧) كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، و«مسلم» (١٦٤) كتاب الإيمان، باب معراجه ﷺ إلى السماوات، الجنة في السماء، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٢٧) في «صحيح الجامع».

وهو محفوظ تولى الله حفظه ولا أحد يستطيع تبديله ولا تغييره حتى يأتي أمر الله الذي أخبر به الرسول ﷺ بأنه سوف يأتي يوم فيسري عليه من صدور الرجال والمصاحف فلا يبقى منه حرف واحد[١]. وهذا يكون عند قيام الساعة؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق[٢]، فإذا ترك الناس العمل به رفع، ولهذا يذكر ذلك العلماء في العقائد التي يعلمونها المسلمين، يقولون: القرآن كلام الله منه بدء وإليه يعود.

يعني هو الذي تكلم به وأسمعه جبريل ونزل به جبريل إلى محمد ﷺ وبلغه إياه ولم يترك منه حرفاً واحداً حتى الأوامر التي وجهت إلى النبي ﷺ بلَّغنا إياها يعني إذا قال الله جل وعلا له: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾ [آل عمران: ٦٤]. فيقول لنا هذا القول، وهذا دليل على أنه لم يترك حرفاً واحداً وأن كل ما جاءه أخبرنا به وأخبر أن هذا قول الله جل وعلا، وأما إليه يعود فيعود صفةً لأنه من صفاته، وهو كلامه أو أنه يعود يسري عليه ثم يرفع ولا يبقى منه شيء أو أن المراد المعنيين كلاهما.

* * *

(١) «ابن ماجه» (٤٠٤٩) كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، و«الحاكم» (٤/ ٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة» (٨٧): «وهو كما قال».

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وَرُسُلِهِ؛

الشرح:

وذلك بأن يؤمن الإنسان بأن الله أكرمهم بالرسالة وأنهم جاؤوا بالهدى وبلغوه إلى قومهم وأن من أطاعهم سعد ومن عصاهم شقي وأن الدين هو الذي جاؤوا به وأنه لا طريق إلى الجنة إلا بالسير خلفهم، ورسل الله جل وعلا كثيرون ولا يجوز أن يفرق بينهم بل يجب أن يؤمن بجميعهم كما قال الله جل وعلا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال جل وعلا في آيات كثيرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فلبس الإيمان بالظلم أن تفرق بين هذا أو أن تعبد الله وتعبد معه غيره، والرسل الذين ذكروا في القرآن خمس وعشرون رسولاً، ويجب على الإنسان أن يؤمن بهم بأعيانهم لأنهم ذكروا بأسمائهم وأولهم آدم عليه السلام أما الذين لم يذكروا بأسمائهم فهؤلاء نؤمن بهم في الجملة.

* * *

وَاليَوْمِ الآخِرِ،

الشرح:

فيشمل كل ما أخبر الله جل وعلا به مما يكون بعد الموت في القبر وفي البعث وفي الموقف والجزاء والحساب والجنة والنار.

* * *

وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)(١).

الشرح:

القدر: هو تقدير الله للأشياء ولا يوجد شيء إلا وقد قدره الله جل وعلا، فالله قد علم الأشياء قبل وجودها ثم كتبها عنده في اللوح المحفوظ ثم شاء ما يشاء؛ لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته ولا يقع إلا على المراد الذي أراده بلا نقص ولا زيادة ولا تقدم ولا تأخر، وهو الخالق لكل الأشياء وما سواه مخلوق، فهذه الأمور هي التي يكون بها الإيمان بالقدر وهي تسمى درجات الإيمان القدر وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق.

❊ ❊ ❊

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الشرح:

قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اسم جنس، ويعني جنس الكتاب أي كل الكتب.

❊ ❊ ❊

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

الشرح:

فهو يكتفي بآية واحدة وإلا فالأدلة على هذا كثيرة، ومعنى ﴿خَلَقْنَٰهُ

---

(١) روى في «الصحيحين» من رواية أبي حيان عن أبي زرعة عن أبي هريرة بلفظ: «وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ».

بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. يعني أنه مقدر قبل وجوده ومكتوب ومعلوم لله جل وعلا، وهو الخالق الذي خلق كل شيء.

* * *

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإحْسَانُ

الشرح:

وهنا قال: إن الإحسان درجة واحدة، وفي الواقع أنه درجتين، ومعنى الإحسان هو أن يأتي الإنسان بالعمل على الوجه المطلوب وبأكمل ما يكون.

* * *

أركانه: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ،

الشرح:

وهذه درجة، فلو قدر للإنسان أن يشاهد ربه فلن يدخر من إحسان العمل شيئاً وسيأتي بالعمل على الوجه المطلوب وبأتم شيء، فإذا لم يصل إلى هذه الدرجة انتقل إلى الدرجة التي دونها.

* * *

فَإِنْ لَـمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

الشرح:

وهذه الدرجة الثانية وهي عبادته جل وعلا على اليقين، يعني تعبده مع العلم أنه يشاهدك ويراك، فإذا لم يصل الإنسان إلى هذا الشيء فهو لم يصل إلى الإحسان.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

الشرح:

هذا دليل على الدرجة الثانية، وهذا شيء يعلمه كل أحد من المسلمين، فيعلمون أن الله يراهم ولكن قد يغفلون عن استحضار العلم والشيء الذي يلزم منه أن يكون الإنسان مجتنباً للنواهي وفاعلاً للمأمورات.

❊ ❊ ❊

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

الشرح:

يعني أن الله يشاهد ذلك ولا يخفى عليه شيء، والأدلة على الأمر بالإحسان والثناء على أصحابه وذكر جزائهم كثيرة في كتاب الله تعالى، وكذا في السنة.

❊ ❊ ❊

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّة: حَدِيثُ جِبْرِيلَ المَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

الشرح:

وجبريل عليه السلام جاء بصورة رجل وهذا أحد أقسام الوحي، أن

يأتي في صورة رجل معين فيخاطب الرسول ﷺ مخاطبة مثل مخاطبة الرجل الذي يقابله.

* * *

قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ،

الشرح:

ذكر كيف جاء وهم جلوس ولا ينتظرون أن يطلع عليهم أحد، وقوله: «إذ» تسمى الفجائية، يعني فجئنا شيء ما كنا نتوقعه.

* * *

شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،

الشرح:

وهذه أربعة أوصاف:

الصفة الأولى: شديد بياض الثياب، والمسافر لا يكون شديد بياض الثياب، بل تكون ثيابه متسخة من الغبار والهواء والأرض، وهذا غريب ليس من أهل المدينة وهو بهذه الصفة.

الصفة الثانية: شديد سواد الشعر، يعني ليس في شعره غبار ولا تشعث ولا تأثر من الهواء.

الصفة الثالثة: لا يُرى عليه أثر السفر، وهذا تأكيد لأن السفر لابد أن يظهر على المسافر، لأنه يمشي ويركب على الراحلة.

الصفة الرابعة: لا يعرفه منا أحد، يعني أنه ليس من أهل المدينة وهذا وجه الغرابة.

وهذه رواية عمر رضي الله عنه، وهي في مسلم وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن الرسول ﷺ لما انتهى قال: «ردوا عليَّ الرجل» فذهبوا ليردوه فلم يروا شيئاً، فأخبرهم أنه جبريل جاء بصورة رجل ثم جاء بأدب في اللباس والنظافة وحُسن اللباس ثم أدب في الجلوس، فيعلمهم الأدب ويعلمهم الدين، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على جانب عظيم من تقدير الرسول ﷺ وكانوا نهوا عن السؤال، فكانوا لا يسألون إلا عن الأمور الضرورية، فجاء جبريل يسأل والرسول ﷺ يجيب حتى يتعلموا، لهذا يقول ابن عمر رضي الله عنهما كنا نفرح بالرجل الأعرابي العاقل الذي يأتي يسأل الرسول ﷺ ونحن نسمع.

* * *

فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ،

الشرح:

الإسناد هو المقابلة، مقابلة الشيء بالشيء، ومعنى ذلك أنه جلس كهيئة الجالس للتشهد أمام الرسول ﷺ، وجعل ركبتيه مقابلة لركبتي النبي ﷺ، ثم وضع يديه على فخذيه، وهذا معناه أنه يُعلِّم الصحابة الأدب مع الرسول ﷺ وغيره، وهكذا عند طلب العلم يجب أن يكون الإنسان متأدباً، وإذا لم يكن متأدباً مع العلم وبطلب العلم يُحرم بركة العلم وهذا هو المعروف، ولهذا كان السلف يعتنون بالأدب، يقول الإمام أحمد رحمه الله: طلبت الأدب أربعين سنة قبل أن أطلب الحديث، وهكذا

غيره كانوا يعتنون به كثيراً، ولهذا ألفوا في ذلك كُتباً في أدب الطلب وبعضهم يسميها أدب سماع الحديث وغيرها، فالعمدة والسند هو هذا الحديث ونحوه.

* * *

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ.

فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَـهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتحُجَّ البَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا».

قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

الشرح:

جاء باسمه العَلَم لما قال: يا محمد، وجاء بعده بالسؤال، فلما أخبره بأركان الإسلام الخمسة قال: صدقت، فتعجبوا لأن مقتضى السائل أن يسأل عن شيء يجهله، ولما قال: صدقت دل على أنه يعلم هذا وليس جاهلاً، وقوله: «عجبنا له يسأله ويصدقه»؛ لأن الذي يعلم الشيء لا يسأل عنه.

* * *

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيْمَانِ.

قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ.

قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعة.

قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

الشرح:

المقصود بالساعة هو وقت مجيئها، وهذا يدل على أن السائل عنده علم، ومعناه أنك أعلم مني بالساعة، وقد أخفى الله مجيء الساعة عن كل خلقه حتى الملائكة والرسل كما قال الله جل وعلا في قصة موسى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

يقول العلماء: أكاد أخفيها عن نفسي لو أمكن، وقال جل وعلا في آية أخرى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

معنى الساعة النفخ في الصور النفخة الأولى، ومن العلماء مَن يقول: النفخ في الصور ثلاث، ومنهم من يقول: أنه اثنتان، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن كما قال جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]. فالراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، وعن النبي ﷺ قال: «بين

النفختين أربعون»[١] قيل لأبي هريرة رضي الله عنه: أربعين سنة؟ قال: أبيت، قيل: أربعين يوماً؟ قال: أبيت، يعني أنه لم يسمع التمييز من النبي ﷺ.

النفخة الأولى لموت كل من كان حياً في السماوات أو في الأرض إلا من استثناهم الله، فمنهم من قال: أنهم الذين في الجنة من الحور والولدان، ومنهم من يقول: الشهداء، وهو غير صحيح، والله أعلم.

المقصود أن الساعة هي النفخ في الصور، ولهذا لما كان وقت مجيئها خفي عن الناس وعن الملائكة عدل إلى السؤال عن أماراتها وعلاماتها.

* * *

قال: فَأَخْبِرْني عَنْ أَمَارَاتِهَا.

الشرح:

الأمارة: هي العلامة القريبة من وقوعها، وقد ذكر هنا اثنتين: **«أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»**. والثالثة ذكرت في غير هذه الرواية: **«أن توسد الأمور إلى غير أهلها»**، وفي رواية: **«أن تضيع الأمانة»**[٢].

* * *

---

(١) «البخاري» (٤٩٣٥) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]. و«مسلم» (٢٩٥٥) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٥٥٨٥) في «صحيح الجامع».

(٢) كلا الروايتين في البخاري من حديث عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥٧) كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل، وذكره البيهقي في «السنن الكبرى».

قال: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا،

الشرح:

وفي رواية: «ربها»[١]، والأمة: هي المملوكة التي تكون مثل المال، وأصل ملك الإماء الكفر، فإذا قاتل المسلمون الكفار واستولوا عليهم استرقوا أولادهم ومن يشاءون منهم، عقاباً لهم لأنهم لم يؤمنوا، ولا طريق إلى الرِّق إلا هذا الطريق، ولهذا إذا تُرك الجهاد في سبيل الله فليس هناك رِق، ومعنى تلد الأمة ربتها أن يكون الولد كأنه سيد الأم يأمرها وينهاها ويتصرف فيها وقد يضربها فهذا من علامات مجيء الساعة، وبعض العلماء يقول: إن هذا عبارة عن كثرة الإماء وكثرة الفتوحات وقد وقع في زمن الصحابة لأنها كثرت، فإذا اشترى الرجل أمة أو كان مقاتلاً مع المقاتلين وأُعطي أمة ووطأها وأنجبت له ولداً صارت عتيقة وصار ولدها هو الذي أعتقها فكأنه سيدها.

* * *

وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

الشرح:

العالة: هم الناس الفقراء يصبح عندهم أموال طائلة وربما أصبحوا يتصرفون في بعض الناس، أما رعاء الشاء: فهو عبارة عن البدو الذين كانوا يربون الغنم فيخبر عنهم أنهم يسكنون المدن ويصبحون من أهلها

---

(١) البخاري (٤٨) كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، مسلم (١٠) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويتفاخرون ويتطاولون في البناء ويتركون باديتهم، فكل واحد يقول: بنايتي وعمارتي أحسن منك. وهذا معنى يتطاولون في البنيان، ويكون هذا من علامات الساعة، وقد وقع هذا كما هو مشاهد الآن، وكل هذا يدل دلالة واضحة على قرب الساعة وعلى صدق الرسول ﷺ وأنها آيات تدل على أنه رسول الله ﷺ، وهذا مما يزيد الإنسان إيماناً وتصديقاً للنبي ﷺ، ويقول العلماء: أن علامات الساعة أقسام:

القسم الأول: العلامات المتقدمة البعيدة نوعاً ما عن الساعة مثل مبعث النبي ﷺ، فهو نبي الساعة، وكان يقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»(١) ويشير بإصبعيه السبابة والوسطى، وكأنه هو الوسطى وهي السبابة، وليس المعنى أن النسبة بين مبعثه وقيام الساعة كالنسبة بين هذين الإصبعين، ولو كان هذا المقصود لعلم مجيئها ولو بالتقريب وإنما المقصود أنها ملاصقة له وأنها تأتي بعد نهاية أمته ودعوته مباشرة بل تأتي على أمته ولابد، وكذلك انشقاق القمر كما قال الله جل وعلا: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. فالساعة قريبة، وكذلك موته ﷺ من علامات الساعة.

القسم الثاني: العلامات المتوسطة.

القسم الثالث: العلامات الكبيرة التي تكون قريبة من قيامها، وجاء أنها إذا بدأت تكون مثل النظام الذي انقطع سلكه، كالخرز الذي ينظم في

---

(١) «البخاري» (٦٥٠٤) كتاب الرقائق، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، و«مسلم» (٢٩٥١) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث أنس رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٢٨٢٩) في «صحيح الجامع».

سلك فإذا انقطع تتابع واحدة تلو الأخرى.

الفائدة من ذكر الساعة وأشراطها هو الإيمان بها والاستعداد لها؛ لأنه لابد من وقوعها وإن كان عمر الإنسان قصير وربما يتيقن يقيناً أنه لا يدركها، ولكن لابد من مجيئها وهو قريب جداً، ويقول العلماء: من مات قامت قيامته، فالقيامة خاصة وهي ما تخص كل واحد بعينه، فإذا مات انتهت حياته ولقي عمله، والعامة هي النفخة الثانية في الصور.

* * *

قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا،

الشرح:

الملي هو الوقت المحدد، إما يوم أو يومين أو ثلاثة.

* * *

فَقَالَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟».

قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،

الشرح:

يعني هذا يقال إذا كان الرسول ﷺ يقابله وإلا يقال: الله أعلم.

* * *

قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم»(١).

الشرح:

فجعل هذه الأشياء كلها دين.

* * *

---

(١) «مسلم» (٨)، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، و«النسائي» (٤٩٠) كتاب الإيمان وشرائعه، باب نعت الإسلام، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وصححه الألباني.

« الأَصْلُ الثَّالِثُ »

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الشرح:

نص على اسمه محمد، وهو اسمه العلم الذي عرف به، وله أسماء عدة منها: أحمد، والماحي، والحاشر، والمقفي(١)، وهذه الأسماء نص عليها هو ﷺ، وله أسماء غير هذه، واسمه العلم لابد منه في التشهد وفي تعيينه وتمييزه عن الرسل؛ لأنه لو قيل: نؤمن برسول الله لقالوا: من هو رسول الله؟ أي رسول فرسل الله كثيرون؟

فلابد من ذكر اسمه العلم، ولهذا يقال في الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله، وكذلك في التشهد في الصلاة، وكذلك عندما يدخل الكافر في الإسلام لابد أن يذكر اسمه العلم، وهذا لا ينافي قول الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. والمعنى لا تنادوه باسمه مثل ما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن قولوا يا نبي الله.. يا رسول الله؛ تعظيماً وتقديراً له، وفي هذا تعين ذكر اسمه العلم

---

(١) روى البخاري من حديث جبير بن مطعم عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بيَ الكفرَ؛ وأنا الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمي، وأنا العاقب» كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، وروي في الدارمي: أخبرنا عبدُالله بنُ صالحٍ، حدثني معاويةُ عن يونُسَ بنِ ميسرةَ، عن أبي إدريسَ الخولانيّ، عن ابنِ غنمٍ، قال: نزلَ جبريلُ على رسولِ الله ﷺ فشقَّ بَطْنَهُ، ثم قالَ جبريلُ: قلبٌ وكيعٌ فيه أذنانِ سميعتانِ، وعينانِ بصيرتانِ، محمدٌ رسولُ الله المقفي الحاشرُ، خلُقُكَ قيِّمٌ ولسانُكَ صادقٌ ونَفْسُكَ مطمئنةٌ. قال أبو محمدٍ وكيعٌ يعني شديداً، كتاب النبي، باب ما أعطي النبي من الفضل.

ولهذا يقرن معه ذكر رسول أو نبي كما في: أشهد أن محمداً رسول الله لابد، ولا تقول أن رسول الله هو رسول الله ولا تقول: أشهد أن محمداً محمداً، فهذا هو السبب في كونه نص عليه هنا باسمه ﷺ الذي عرف به وسمّاه به أهله.

* * *

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ،

الشرح:

وهذا النسب الذي ذكره هو اسم الأب واسم الجد ثم القبيلة؛ لأن هاشم ليس هو الجد القريب، وعبدالمطلب له أولاد متعددون منهم أبوطالب الذي كفله وقام بنصره، وكان سيداً في قريش.

* * *

وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ،

الشرح:

هنا ذكر القبيلة التي هي قريش، وقريش بعيد وسمي قريش؛ لأنه جمعهم، والقرش هو التجميع، كانوا متفرقين فجمعهم.

* * *

وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ،

الشرح:

وسمي العرب عرباً لإعرابهم الكلام ولفصاحتهم وبلاغتهم، ويقول علماء النسب: أن العرب قسمان:

القسم الأول: العرب العاربة: وهم من ينتهي أصلهم إلى نبي الله هود

عليه السلام، والأنبياء منهم أربعة عرب والبقية لسانهم أعجمي، فهود وصالح وشعيب ونبينا محمد ﷺ هؤلاء من العرب، ومن العرب العاربة قحطان واليمن.

القسم الثاني: العرب المستعربة: وهم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن أصله عربي؛ لأن إبراهيم عليه السلام ليس عربياً، وإبراهيم عليه السلام أتى بابنه إسماعيل إلى مكة مع أمه هاجر ولم يكن بها أنيس ولا حسيس، وهاجر هي الأَمة التي وهبها لإبراهيم عليه السلام الجبار الذي استدعاه لما دخل بلده، فقال أهل هذا البلد للجبار: إن رجلاً معه امرأة من أجمل الناس ولا ينبغي أن تكون إلا لك، وهذه المرأة هي سارة، فاستدعاه وسأله عنها.

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه إذا قال إنها زوجتي أخذها، فقال: إنها أختي، تأول هذا بأنها أخته في الإسلام، ثم علم أنه سيستدعيها فقال لها: إنه سألني فقلت: إنكِ أختي فلا تكذبيني، أنتِ أختي في الإسلام، ليس في الناس اليوم مسلم غيري وغيرك، وهي سارة، فاستدعاها وسألها قالت: أنا أخته، ومع ذلك مد يده إليها فقبضت يده، فقال: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله فمدها مرة ثانية فقبضت أشد من الأولى، قال لها مرة أخرى: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله فمدها مرة ثالثة فقبضت مرة أخرى حتى صار يركض برجله الأرض ورأى الموت، فقالت: اللهم إن يمت يقولون قتلته، فقال: ادعي إلهك أن يطلق يدي وأخرجك، فدعت الله فأطلقه فصاح: أخرجوها عني إنما جئتموني بشيطان، ثم أعطها الجارية، وكان إبراهيم عليه السلام

يصلي ويدعو ربه، فلما جاءت سارة استقبلها قائلاً: مهيم؟

قالت: أخزاه الله وأخدم وليدة، وإبراهيم عليه السلام لم يأتيه من سارة أولاد وكبر سنه، فوهبته الجارية فحملت فغارت سارة منها، فجاء بها مهاجراً مع ابنها وهو يرضع، فوضعها في مكانٍ عند البيت وليس عندها أحد ورجع وهي تقول: يا إبراهيم تذهب وتتركنا هاهنا وهو لا يكلمها، فلما رأت أنه لا يكلمها قالت: آلله أمرك بهذا؟

قال: نعم. فرجعت وقالت: إذن لا يضيعنا الله، وكان معها قليل من الماء وقليل من التمر، فانتهى الماء وجف ثديها وجاع الصبي وظمي حتى كاد يدركه الموت وجعل يتلبط، فكرهت أن تنظر إليه وهو يموت، فنظرت فإذا أقرب مرتفع إليها هو الصفا، فصعدت الصفا لعلها ترى أحداً، فلم ترى أحداً فنزلت متجهةً للمروة لعلها ترى أحداً وفعلت هذا سبع مرات، إذا وصلت الوادي سعت أشد ما يكون سعياً بكل جهدها، وأخيراً سمعت صوتاً فقالت لنفسها: صه، ثم تأكدت من الصوت وقالت: لقد أسمعت إن كان عندك غوث فأغث، فنظرت فإذا جبريل عليه السلام عند الصبي فبحث في الأرض فنبعت زمزم فصارت تحجرها بالتراب، يقول الرسول ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركتها لكانت عيناً معيناً**»(١) ولكنها حجرتها فاحتجر الماء فصارت تشرب من الماء وقال لها: لا تخافي فإن هذا الصبي سيبني مع والده بيتاً لله في هذا المكان، وجاءت مجموعة

---

(١) «البخاري» (٢٣٦٨) كتاب المساقاة، باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائة، و«أحمد» (٣٢١٧) مسند بني هاشم، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٨٠٧٩) في «صحيح الجامع».

من الناس من اليمن ومن أسفل مكة فرءوا الطير تحوم فوق الماء فقالوا: عهدنا بهذا الوادي لا ماء فيه، فأرسلوا رجلاً ينظر فوجد الماء، فاستأذنوها لينزلوا عندها وكانت تحب الأنس، فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، فرضوا ونزلوا يشربون والماء ليس لهم.

المقصود أن هذا أصل إسماعيل عليه السلام، ثم كبر إسماعيل عليه السلام وتزوج منهم وأتى إبراهيم عليه السلام بعد فترة ينظر إليه ويسلم عليه، ولكنه أتى مرتين فلم يجده، أحدهما لقي زوجته فقال:أين بعلك؟ قالت: ذهب يطلب لنا الصيد. قال: ما طعامكم؟ قالت: الماء واللحم ونحن في شر من العيش لا يُرضي. قال لها: إذا جاء بعلك أقرئه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام وكأنه حس سأل زوجته: هل أتاكم أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ صفته كذا وكذا ويقرؤك السلام ويقول لك غير عتبة بابك. قال: هذا والدي وأنتِ عتبة بابي، اذهبي لأهلك، ثم تزوج بأخرى فصارت أحسن من الأولى، فلما جاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى لم يجد إسماعيل عليه السلام، ولقي زوجته، فسألها: أين بعلك؟ قالت: ذهب يطلب لنا الصيد، فسألها عن حالتهم فقالت: نحن بخير ونعم من الله جل وعلا وأثنت على الله، فقال لها: إذا جاء بعلك أقرئه السلام وقولي له أمسك عتبة بابك، ثم أتى مرة ثالثة ووجده فاعتنقه وقال له: إن الله أمرني أن أبني بيتاً هنا، فصاروا يبنون البيت الذي أمرهم الله جل وعلا ببنائه، فهذا أصل العرب لما تزوج كثر الناس منه وصاروا هم أهل البيت وانتشروا في الأرض وصار له ذرية كبيرة وأرسله الله إليهم، فهو رسول من رسل الله الذين نُص عليهم في

القرآن، فأرسله لذريته ومن حولهم.

* * *

وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ(١)،

الشرح:

ولم يرسل بعد إبراهيم عليه السلام نبي إلا من ذريته، ولكن إسماعيل عليه السلام ليس من ذريته إلا محمد ﷺ، يقال: أن خالد بن سنان نبي أرسل إلى العرب وضيعه قومه(٢)، والله أعلم هذا جاء في أحاديث ولكنها فيها مقال ولا تثبت، ثم التعريف بالنسب: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم لا يكفي للمعرفة، ولو أن الإنسان عرفها معرفة تامة، لأن الكفار كلهم يعرفون هذا، كفار قريش وغير كفار قريش يعرفون هذا تمام المعرفة، يعرفون نسبه إلى أبعد من ذلك، وقوله جل وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقال: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني تعرفونه، وتعرفون نشأته وأمانته وصدقه، يعني أكثر من معرفة نسبه ومع ذلك لم تفدهم هذه المعرفة، فالمعرفة الصحيحة التي لابد منها هي التي تعرفك بأنه رسول وهي

---

(١) انظر: إكمال نسبه في كتابه «مختصر السيرة».

(٢) ابن كثير في تفسير سورة المائدة، و«فتح الباري» (٦/ ٤٨٩) دار المعرفة ببيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب، وكذلك «مصنف ابن أبي شيبة» و«المعجم الكبير».

تتوقف على النظر في سيرته ﷺ وحالته التي كان عليها، النظر في أحواله وفي أقواله وفي جهاده وفي دعائه فسيرته كلها آيات، فبغض النظر عن الشيء الذي يكون له ويقوله، إذا نظرنا مثلاً بالعقل فهو جاء وحده إلى كفار قريش ولم يكن معه أحد ولم يكن ملكاً أو له دولة بل هم يعرفون أنه نشأ يتيماً ﷺ وكان يرعى لهم الغنم على قراريط يعني دراهم ثم صار يكره اجتماعاتهم وما كانوا عليه فصار يعتزلهم وقد عرف بينهم أنه الأمين حتى إنهم لما انهدّت الكعبة وهم يعظمونها جداً، فجمعوا أموالاً وقالوا: لا يأتي في هذا المال إلا ما هو حلال، نفقة حلال ليس فيها ما هو بغي أو ربا، فصارت قليلة لم يستطيعوا أن يجمعوا الشيء الذي يكفي، فاختزلوا من الكعبة حتى تكفي هذه النفقة، ولكن الشاهد أنهم ـ أي قريش ـ تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبدمناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبدالدار بن قصي ولبني أسد بن عبدالعزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم، فلما وصلوا إلى موضع الحجر اختلفوا من الذي يضعه، فكل قبيلة تريد أن تحظى بوضعه فكادوا يقتتلون، ثم اتفقوا فيما بينهم أن أول داخل عليهم المسجد يحكموه في هذا الأمر وأن يرضون بما حكم به، فكان أول من دخل هو رسول الله ﷺ وذلك قبل أن يوحى إليه، ففرحوا، وقالوا: الأمين.. الأمين، فحكموه فقال: اتوني بثوب، فجاؤوا بالثوب فأخذ الحجر بنفسه فوضعه في الثوب وقال: لتأخذ كل قبيلة بجانب من الثوب فرفعوه جميعاً، فلما رفعوه وصار موازياً لمكانه أخذه ووضعه هو

ﷺ في موضعه ورضوا بهذا وفرحوا به وذهبت الخصومة[١]، المقصود أنهم كانوا يعرفونه بالأمانة والصدق، فلما أتاهم وحده قال: إن الله أرسلني إليكم بأن لا تعبدوا إلا إياه وإن بقيتم على شرككم سلطني الله عليكم فقتلتكم وأخذت أموالكم وسبيت أولادكم، فهل يقول هذا الكلام عاقل وهو ليس معه قوة، ومعنى هذا أنه يغريهم على نفسه بالقتل ومع ذلك ما استطاع أحد أن يجرأ عليه وإن كانوا يؤذونه ولكن ما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً، فهذا من الآيات، وفي قصة الأعرابي الغريب ومعه جمل فباعه فاشتراه أبوجهل فصار يماطله ولا يعطيه حقه، فجاء إلى جماعة جلوس منهم بقرب الكعبة فشكى إليهم فصاروا يتهكمون به، فقالوا: انظر ذلك الرجل الذي يصلي - يقصدون الرسول ﷺ - هو الذي يعطيك حقك، لأنهم يعرفون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، فذهب إليه وقال: أريدك أن تعطيني حقي من فلان فقال: نعم، فقام وذهب معه، فأرسلوا رجلاً ينظر ماذا يصنع، فطرق عليه الباب فخرج فقال: أعطي هذا حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى آتيه به، فدخل وجاءه بحقه فعجبوا وقالوا إنه أسلم، فبعد ذلك أتى فقالوا له: كيف صنعت ذلك؟ قال: والله لقد رأيت فحلاً عظيماً فاغراً فاه لو امتنعت لقضمني، هذه القصة ذكرها طارق السويدان في بعض أشرطته وقال: هذه الشجاعة وهذه كذا وكذا، فهذه ليست شجاعة هذه آيات من آيات الله جل وعلا من آيات النبوة ومع ذلك القرآن أعظم من هذا كله، كانوا يعجبون وكانوا يستمعون حتى كانوا يتعاقدون ألا يستمع أحد ثم يأتي كل واحد ليستمع، فالمقصود أن الآيات

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن إسحاق، البداية والنهاية.

التي تعرف به مثل هذا، وكذلك إجابة دعائه وكونه يخبر بالأمور الغائبة والمستقبلة والماضية وهو شيء لا يعرفونه وهو أيضاً ليس عنده علم سابق ولم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب، ثم كذلك كونه يأمر الشيء مثل الشجرة فتأتي والحجر يسلم عليه يقول: السلام عليك يا رسول الله[١]، والطعام القليل يتكاثر كما في غزوة الخندق، فإنه ﷺ كان يحفر معهم وكان قد ربط على بطنه حجراً من الجوع، فشاهد ذلك جابر بن عبدالله رضي الله عنه، فقال: لا صبر على هذا، فاستأذنه وقال: يا رسول الله، ائذن لي أذهب إلى بيتي فقال: نعم، وهو يريد الذهاب إلى البيت لينظر هل عنده شيء أو لا، فذهب وقال لزوجته: هل عندكم شيء؟ قالت: عندنا صاع من شعير وعندنا بهمة صغيرة، فذبح البهمة وقال: اطحنوا الشعير وسوف أدعوا رسول الله ﷺ واثنين أو ثلاثة معه فهذا يكفيهم، فذهب وأخبر الرسول ﷺ قال: إن عندي بهمة وعندي صاع من شعير وقد أمرت أهلي أن يطحنوه وقد ذبحت البهمة وأريدك أن تذهب أنت واثنين معك، فأمر ﷺ أن ينادى في الناس إن جابراً يدعوكم إلى الطعام وكان جيشاً قرابة السبعمائة رجل، فذهب جابر مسرعاً إلى أهله وقال لزوجته: أتاكم رسول الله والمسلمون، كانت الزوجة عاقلة، قالت: هل أخبرته؟ قال: نعم. قالت: إذن لا عليك، فدخل عليهم ﷺ وقال: لا تخبزوا حتى آتيكم، فتفل في العجين وفي البرمة التي فيها اللحم ثم قال: اخبزوا، فصاروا يخبزون ويقدمون للناس، كل عشرة رجال معاً حتى شبعوا كلهم عن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

أخرهم وبقي كما كان وكأنه لم يؤخذ منه شيء[1]، فلا يمكن أن يكون هذا في مقدور البشر أبداً.

وكذلك قصة أبي هريرة رضي الله عنه التي في الصحيحين يقول: كنت ألازم رسول الله ﷺ على شبع بطني ـ وكان من الفقراء من أهل الصفة ـ يقول: فمر عليَّ يوم أو يومين لم آكل شيئاً، فخرجت أتعرض للناس لعلهم يستلحقوني، فمر عليَّ أبوبكر رضي الله عنه، فسألته عن آية وليس مقصودي إلا أن يفطن لي فيدعوني، ولكنه ما فطن ومضى ثم مر عمر رضي الله عنه كذلك، فأتى رسول الله ﷺ فلما رآني ضحك فقال: «**أبا هر**»، قلت: لبيك رسول الله، قال: «**اتبعني**» فتبعته، فلما وصل إلى بيته قال: «**هل عندكم شيء؟**» قالوا: نعم، لبناً أهدي لنا. فقال لي: «**أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**اذهب ادعوا أهل الصفة**» فقلت في نفسي: أنا أحق بهذا اللبن، وماذا يعمل بأهل الصفة هذا اللبن ـ وأهل الصفة سبعين رجلاً أو أكثر ـ وإذا جئت سوف يقول لي: اسقهم، فأكون أنا الأخير ولا يكون لي شيء، يقول: فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم، قال لي: «**أبا هر، اسق القوم**»، فصرت أمشي به عليهم وكل واحد يشرب فأعطيه الثاني، حتى انتهوا عن أخرهم، عند ذلك قال: «**أبا هر، بقيت أنت وأنا**» قلت: صدقت يا رسول الله، فقال لي: «**اشرب**» فشربت. ثم قال لي: «**اشرب**» فشربت. ثم قال لي: «**اشرب**» فقلت له: يا رسول الله، والله لا

(١) «البخاري» (٤١٠٢) كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، «سنن الدارمي» (٤٢) باب ما أكرم به النبي ﷺ في بركة طعامه. من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

أجد له مساغاً، عند ذلك قال لي: «ارنيه» فأخذه فشرب وهو كما هو[1]، وهذا كثير جداً ولكن يحتاج الإنسان أن يقرأ في سيرة النبي ﷺ فيعرف أنه رسول الله حقاً، ولكن الشيخ رحمه الله أراد من هذا أنك تعرف نسبه ثم تبحث عن الآيات التي تدلك على أنه رسول حق ﷺ.

* * *

وَلَهُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ،

الشرح:

يعني أنه لما توفي كان له ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة، لأنه أتاه الوحي بعدما بلغ أربعين سنة وكان قبل ذلك قد كره ما عليه قومه، فخالفهم وابتعد عنهم لأنهم كانوا يعملون أعمالاً خلاف الفطرة التي فطر الله عليها الناس.

* * *

وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النُّبُوَّة.

الشرح:

منها ثلاثة عشر قضاها في مكة وعشر سنوات في المدينة، واجتمعت له النبوة والرسالة، وكل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولاً، لأن النبي هو الذي ينبأ بالخبر من السماء، وخبر السماء قد يأتي إلى نبي مع قوم مؤمنين، والرسول لابد أن يرسل إلى قوم كافرين، وهذا هو الفرق بين النبي والرسول، والأنبياء في بني إسرائيل كثيرون جداً، ويتضح هذا في

---

(١) «البخاري» (٦٤٥٢) كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا، ذكره البيهقي في «السنن الكبرى» (٤١٣٦) باب المسلم يبيت في المسجد.

الأطوار التي كانت في رسول الله ﷺ.

* * *

نُبِّئَ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ ، وَأُرْسِلَ بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾،

الشرح:

يعني أنه لما كان يعتزل قومه وكان ينفرد في غار حراء في جبل أسفل مكة وكان يأخذ معه زاداً ويبقى فيه أياماً حتى ينتهي الزاد ثم يرجع إلى أهله، وهذا بعدما تزوج خديجة رضي الله عنها وجاءه منها بعض الأولاد، فحبب إليه الخلاء للتفكر في مخلوقات الله، فجاءه جبريل عليه السلام، في صورة رجل وهو في هذا الغار فضمه ضمة شديدة ثم أرسله، وهذا تهيئة ليتحمل ما سيلقى إليه، فلما أرسله قال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾، فقال: لست بقارئ، يعني ما أحسن القراءة، فضمه مرة ثانية وكانت أشد من الأولى ثم أرسله وقال له: اقرأ، فقال: لست بقارئ، ثم ضمه أشد من الأولتين ثم أرسله وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. إلى هنا فقط ولم يزد على هذه الآيات، فحفظها ولكنه خاف خوفاً شديداً وجاء إلى أهله ترتجف فرائصه من الخوف، فقال: «دثروني» - يعني غطوني - لأن الخائف إذا غُطي يهدأ، ثم أخبر زوجته بأنه خائف على نفسه، أي أنه يخشى أن يكون شيطاناً أو جنياً، فقالت: لا والله لا يخزيك الله أبداً، فإنك تُقري الضيف وتعين على نوائب الدهر(١)، فاستدلت بأفعاله وصفاته على

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها.

أنه لا يناله الشر، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وله صلة برسول الله ﷺ وكان رجل كبير وقد تنصَّر وقرأ الكتب، التوراة والإنجيل، فجاءت إليه وقالت: هذا ابن عمك سيصف لك ما رأى لتخبره، فأخبره الرسول ﷺ بما جرى، فقال له: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام - يعني جبريل - ليتني فيها جذع، إن يدركني أمرك لأنصرنك نصراً مؤزراً، وسيخرجك قومك، قال: «**أو مخرجي هم؟**» قال: «**نعم، ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي**»، ثم توقف عنه الوحي، وهنا اختلف العلماء كم الوقت الذي توقف فيه؟

منهم من يقول ستة أشهر، ومنهم من يقول سنتين، وفي هذه الحالة كان نبياً لأن هذه الآيات ليس فيها أمر بأن ينذر، وإنما أمر فقط بالقراءة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وهذا وحي، ثم بعد هذه الفترة كان يشتاق إلى أن يأتيه جبريل عليه السلام لما عرف أنه الحق وكان يحزن كثيراً لأنه لا يأتيه حتى كان يهم أنه يتردى من جبل أو ما أشبه ذلك، فكلما اشتد به الأمر ناداه جبريل عليه السلام: يا محمد أنت نبي الله، ثم سمعه يخاطبه فالتفت يميناً وشمالاً وخلفه فلم يرى شيئاً، فرفع رأسه فإذا هو بين السماء والأرض وقد سد الأفق وكان على صورته الحقيقية وله أكثر من ستمائه جناح، فارتاع أيضاً في هذه المرة أشد من الأولى، فجاء إلى أهله وقال: «**زملوني.. زملوني**»(١)، فجاء جبريل عليه السلام بالوحي من الله

---

(١) «البخاري» (٤٩٢٦) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، «مسلم» (١٦٠) كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧]. فهذا أول أمر أُمر به، والمدثر: هو الذي تغطى بدثاره وهو الغطاء، وقوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ فكلف الآن بالنذارة وصار رسولاً، فصار يدعو الناس سراً في أول الأمر فيدخل الرجل والرجلين على خوف من الناس، وفي صحيح مسلم عن عمر بن عبسة السلمي رضي الله عنه قال: كنت في الجاهلية أرى الناس ليسو على شيء، وهذه فطرة الإنسان بل كان الكثيرون في الجاهلية يرون أنهم ليسو على شيء من عبادة الشجر والحجر، والعقول تمج هذا الشيء وتأبه من عبادة الشجر والسجود لها ودعاءها وهي لا تنفع ولا تضر، يقول: فكنت أذهب إلى موارد المياه وأسأل الناس هل من خبر؟

وفي يوم من الأيام جاء رهط من قِبل مكة، فقلت: هل من خبر؟ قالوا: نعم، رجل يخبر خبر السماء، فركب على راحلته وذهب إلى مكة، يقول: فلما أتيت مكة وجدت الناس عليه جرآء. يعني معادون له ويريدون أذيته. فكان مختبئاً في بيت ابن الأرقم، يقول: فتلطفت ـ أي سألت بخفية ـ وبحثت حتى وصلت إليه، فدخلت عليه وقلت: من أنت؟ قال: أنا نبي. قلت: وما نبي؟ فقال: أرسلني الله. فقلت: وبما أرسلك؟ قال: أرسلني بعبادته وحده وبكسر الأصنام وصلة الأرحام. فقلت: هل معك على هذا أحد؟ فقال: معي حر وعبد ـ ومعه يومئذٍ أبوبكر وبلال ـ فقلت: إني متبعك. قال: لا تستطيع، ألا ترى ما أنا فيه، ولكن اذهب إلى قومك فإذا سمعت بي قد خرجت فأتني، فرجع إلى قومه وقد أسلم، فلما سمع أنه خرج إلى المدينة مهاجراً ذهب إليه فقال: تعرفني؟ قال: نعم، أنت الذي

أتيتني بمكة[١].

المقصود أنه أول من آمن به زوجه خديجة وأبوبكر ثم بلال رضي الله عنهم، وكان بلال مملوكاً وكان سيده يعذبه لما أسلم فاشتراه أبوبكر رضي الله عنه، والمقصود أنه بهذه الآيات أرسل ولهذا قال «نُبِّئَ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾» يعني صار نبياً لما جاءه الوحي، والآيات الأولى من سورة اقرأ هي أول ما نزل من القرآن، وما جاء في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: أول ما نزل المدثر. يحمل على أول ما نزل في تكليف النبي ﷺ أن يكون رسولاً، وأول المدثر نزلت بعد اقرأ وكان بينهما فترة.

وقوله: «وَأُرْسِلَ بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾» يعني كلف بالرسالة وهي إبلاغ الناس.

* * *

وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

الشرح:

وهذا من باب المعرفة، أي كونك تعرف من أي بلد نبيك، وأنه من أهل مكة وعاش فيها كما عاش غيره هناك، ثم هاجر إلى المدينة، والهجرة هي هجر المعاصي وهجر ما نهى الله عنه وهي كذلك هجر البلد الذي يكون حكم الكفر فيه ظاهراً والحكم للكفار فيه إلى البلد الذي يكون الحكم فيه للإسلام، والهجرة باقية كما سيأتي إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

* * *

(١) «مسلم» (٨٣٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة. قال الشيخ الألباني: «صحيح، إلا الجملة الأخيرة منه».

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ،

الشرح:

يعني بعثه ينذر الناس، والنذارة هي الإعلام بالشيء المهم مع التخويف وهي ضد البشارة وتقابلها، فهو ينذر الناس عن معاصي الله، ومن أعظمها الشرك، وكذلك يبشر الناس ممن يقبل منه ويوحد الله فهو نذير وبشير، نذير للعصاة والكفار وبشير لمن أطاعه واتبعه بأنه يسعد في الدنيا والآخرة، وهو يدعو إلى التوحيد وطاعة الله والأخلاق الفاضلة والإحسان إلى الناس وغير ذلك من جميع الأمور المحمودة.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

الشرح:

قوله: ﴿قُمْ﴾ يعني تقبل الأمر بجد وقوة ولا تتوانى في ذلك فإنه أمر الله جل وعلا، فالأمر بالقيام هو عبارة عن الجد في ذلك والقوة فيه ولا يفتر في ذلك، وقد قام بذلك كما أمره الله جل وعلا.

* * *

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

الشرح:

وتعظيمه عن أن يكون له شريك، والتعظيم يكون بالفعل وبالدعوة إلى ذلك والتحذير منه وبيان عظمته جل وعلا.

* * *

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

الشرح:

أي طهر أعمالك عن المعاصي، ويدخل فيه تطهير الثياب أيضاً لأن المسلم يؤمر بالطهارة ظاهراً وباطناً، فطهارة الظاهر أن يكون بدنه وثيابه طاهرةً، ولهذا صار هذا شرطاً لصحة الصلاة، وطهارة الباطن أن تكون نيته وأعماله لوجه الله جل وعلا وألا يقصد بها غيره ولا يعصي الله جل وعلا في سمعه أو نظره أو في يده أو في رجله أو في قلبه وغير ذلك، وهذا أعظم الطهارتين.

* * *

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.

الشرح:

مع بغضها وعداوتها ولابد من ذلك، وهجرها يقتضي أنه لا يكون مع أهلها ولا يكون حولها إلا إذا جاء لتكسيرها وقتال أهلها.

* * *

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ،

الشرح:

ومعناه أنه لم يؤمر بصلاة ولا بصوم ولا بزكاة في مدة العشر سنوات هذه، وإنما أمر بعبادة الله وحده، ومعروف أن الصلاة من أعظم العبادات التي أمر الله جل وعلا بها، ونأخذ من هذا أنه لابد أن تستقر عبادة الله في الإنسان ويكون مخلصاً دينه لله ثم تأتي الأعمال وتبنى عليه، ولا يخالف

هذا المنهج الإنسان الذي يبدأ الناس بالخُلق والمعاشرة الطيبة ويتركهم يقعون في الشركيات وفي الأمور التي تبطل الأعمال، فهذا دليل على عدم الفقه وعدم معرفة سيرة النبي ﷺ وما بعث به.

* * *

وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ،

الشرح:

العروج: هو الصعود فوق، والعروج صار من بيت المقدس لأنه أسري به أولاً ثم عرج به من هناك، وهذا لا يصدق به إلا الذين يؤمنون بأخبار الرسول ﷺ وإلا كثير من الناس يقولون هذا لا نعرفه، كيف يصعد إنسان إلى السماء بلا صاعد؟

ثم أن الصعود إلى السماء مسافة ليست كثيرة ينقطع الأكسجين فيختنق الإنسان ويموت بسرعة، فهم ينظرون إلى الأمور المادية التي يدركونها ثم يبنون عليها كل شيء ويكذبون الأخبار التي تأتي من هذا القبيل، ولهذا يقول فريد وجدي في دائرة المعارف التي سماها دائرة معارف الشباب وهي منتشرة، فلما جاء إلى مادة عَرَجَ قال: هذا لا يعقل ولا يمكن أن يقع. هذا وهو مسلم، ولكنه يأخذ عن الأوربيين الكفار، ثم لما جاء إلى مادة إسراء قال: هذا يمكن لأن علماء الغرب قرروا انتقال الأرواح من مكان إلى آخر، فاستدل بقول علماء الغرب، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن جبريل عليه السلام أتاه معه البراق وهو دابة شبه الفرس يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبه حتى وصل إلى هناك واجتمع الرسل له فصلى بهم، واجتماعهم كان اجتماع أرواحهم، ثم أُتي بالمعراج والله

أعلم ما هو المعراج؟ فعرج به، والسماء ارتفاعها هائل جداً، فجاء التقدير بأنه مسيرة خمسمائة سنة بين السماء والسماء وكذلك من سماء إلى سماء، وجاء في حديث أخر سبعمائة سنة، وهي مسافة ليست بسهلة، وإن كان بعضهم جاء بأقل من هذا.

المقصود أن المسافات بعيدة جداً ثم في ليلة واحدة يصعد السماوات كلها ويلتقي بالرسل، وكل رسول يسلم عليه في منزله، ولقاؤه بهم في الأرض غير لقاؤه بهم في السماء، فلقاؤهم بهم في السماء في منازلهم وبأرواحهم أما أبدانهم فهي في القبور، وقد مر على موسى عليه السلام في قبره وهو يصلي في قبره وهذا من النعيم الذي جزاه الله جل وعلا به وإلا فهو ليس مكلفاً بالصلاة، ولكن الصلاة هي قرة عيون الموحدين فأنعم الله جل وعلا عليهم بذلك، ثم لقيه في السماء السابعة في الرواية التي جاءت في الصحيح بفضل تكليم الله له، ولما صعد فوقه بكى فقيل له: ما الذي يبكيك؟ قال: هذا غلام بعث بعدي ويتبعه من الناس أكثر مما اتبعني، فلما نزل سأله: ماذا فرض الله عليك؟ قال: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك ضعفاء في أبدانهم وأجسادهم. وقد عالجت بني إسرائيل بما هو أقل من هذا فما استطاعوا، فالتفت إلى جبريل عليه السلام يستشيره، فقال: نعم، فرجع فحط عشراً، فأتى إلى موسى عليه السلام فقال: كم فرض عليك؟ قال: أربعون صلاة. قال: ارجع فاسأل ربك التخفيف، فصار يتردد بين موسى عليه السلام وبين المكان الذي كلمه الله فيه إلى أن صارت خمس، فلما صارت خمس قال له موسى عليه السلام: ارجع

فاسأل ربك التخفيف، فقال: لقد استحييت من ربي، فكلمه الله: لقد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. فقال: إذن أنزل على بركة الله، فنزل في ليلة واحدة، ثم أتى إلى البراق وركبه ومعه جبريل عليه السلام وجاء إلى مكة قبل طلوع الشمس[١]، فهذا لا يُستغرب لمن يؤمن بالله ويؤمن بقدرته، فإذا مات الإنسان فالروح تصعد إلى السماء بصحبة الملائكة، فإن كان تقياً فتحت لها أبواب السماء كلها إلى أن تصل إلى السماء السابعة ثم ينادي الله جل وعلا الملائكة ويقول لهم: اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه على الأرض، ثم يعاد على الأرض وهذا ما بين تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، فإذا وضع في قبره أعيدت روحه إليه ويأتيه الملكان يسألانه عن هذه الأصول الثلاثة[٢]، أما إذا كان كافراً فاجراً فإنه إذا صعد بروحه ووصلت إلى السماء الدنيا أغلقت أبواب السماء ثم تطرح طرحاً، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وما عدا ذلك تعاد إلى جسده، أما الأمور المادية والأمور المعتادة عند الخلق فلا تقاس بقدرة الله جل وعلا، والمقصود في هذا أن نعرف عظمة التوحيد وقدره، وأنه لا يمكن أن يقبل من الإنسان شيء وهو مخل به، يعني عنده شرك.

* * *

(١) البخاري (٣٥٩٨) كتاب المناقب، باب المعراج، مسلم (٢٧٤) كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «أحمد» (١٨١٨٦) مسند الكوفيين، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ،

الشرح:

فبقي ثلاثة عشر سنة في مكة، فلما توفي عمه أبوطالب الذي كان يحوطه ويحميه، وإن كانت هذه عصبيات، ولكن بعض العصبيات قد تُحمد أحياناً، ولهذا من سنة الله جل وعلا في الخلق أنه لم يرسل رسولاً إلا في عزة من قومه، يعني أن قبيلته تحميه وتحوطه، ولهذا قال قوم شعيب عليه السلام له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]. ورهطك يعني قبيلتك التي تحميك وتحوطك، إلا لوط عليه السلام فإنه ما كان له قبيلة في قومه، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. وهذا لما اشتد الأمر عليه وهذا في آخر ما كان لهم من البقاء، لما قرب عذابهم، لأن الله جل وعلا ابتلاهم لابتداعهم بدعة لم يسبقهم بها أحد، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، فسنوا هذه السنة الخبيثة القذرة، وكانوا يتطلعون إلى من يأتيه، ومن تمام البلاء أن الملائكة الذين جاؤوا لتعذيبهم جاؤوا بصورة شباب حسان الوجوه، فلما رأوهم أرادوهم، فصار يحاول أن يحول بينهم وبين ضيوفه حتى اشتد الأمر، فعرض بناته ليزوجهم إياهن ولكنهم أبوا فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. يقول الرسول ﷺ: «رحمه الله، فقد كان

يأوي إلى ركن شديد»[١] لأنه يأوي إلى الله، فلما رأى جبريل عليه السلام ما فيه قال له: لا تحزن فلن يصلوا إليك، فطمس وجوههم بطرف جناحه فعميت أبصارهم.

والمقصود أن حماية عمه له ليس لكونه رسول وإنما هو أمر طبيعي من باب العصبية، وتوفيت زوجته خديجة واشتد أذى المشركين عليه وكثر المسلمون وصاروا يدخلون في الدين بكثرة، فاشتدت أذية الكفار عليهم خوفاً من أن يكثرون ويكاثرونهم ويأخذون بلدهم وهم متمسكون بشركهم، وأكثر ما حال بينهم وبين طاعته هو تعظيم أجدادهم وآبائهم لأنه لما أمرهم بترك الأصنام وسفه أحلام من يعبد الشجر والحجر، قالوا هذا تناقص لآبنائنا ولا نترك دين آباءنا، فهذه كانت حجتهم بأنهم وجدوا آباءهم على دين وأنهم يتمسكون به وهذه هي حجة الكفار كلهم كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣]. وهي حجة التقليد وتعظيم الآباء.

المقصود أنهم اشتد أذيتهم فحاولوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ أو يحبسوه ويسجنوه أو يخرجوه، فاجتمعوا في دار الندوة ليتشاورون فيما بينهم، فجاءهم الشيطان في صورة شيخ وهم أرادوا أن يكون الاجتماع سرياً ولا يحضر أحد من غير الكبار، فلما عرض لهم هذا الشيخ وهو غير

---

(١) البخاري (٣١٢١) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾، مسلم (٢١٦) كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معروف عندهم أنكروه وقالوا له ما الذي جاء بك، فقال لهم: أنا شيخ من أهل نجد سمعت باجتماعكم ولن تعدموا مني رأياً، فلما قال لهم هذا القول أذنوا له بالدخول معهم وصاروا كلما قالوا قولاً قال: ليس هذا لكم برأي، قالوا: نربطه؟ قال: ليس هذا لكم برأي، لأن كلامه يخرج من وراء الجدران والباب، ألا ترون حلاوته وطلاوته، فهو مثل السحر، ولكن انظروا رأياً أخر، فقالوا: نخرجه؟ فقال: ليس هذا لكم برأي، فإذا أخرجتموه يوشك أن تجيبه العرب فيأتون إليكم ويقتلونكم. قالوا: صدقت. فقال رجل منهم: إن عندي رأياً ما أراكم وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟

قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة رجلاً قوياً ويُعطى سيفاً ثم يضربونه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فترضى بنو عبدالمطلب منكم بالدية. فقال: هذا هو الرأي، فأيدهم بهذا وتفرقوا على هذا الشيء واتفقوا عليه[١]، فجاءه الوحي من الله جل وعلا وأنهم يبيتونه في بيته، فأمره الله جل وعلا ألا يبيت في منامه تلك الليلة، والله قادر على كل شيء ولكن لله سنة في خلقه لا تتغير، فأمر النبي ﷺ علي رضي الله عنه أن يبيت مكانه وقال له: لن ينالك أذى، وكانوا يشاهدون من الباب فيرونه متلحفاً بغطاء وهم باقون عند الباب حتى يخرج إليهم ولم يدخلوا عليه، فخرج من الباب وهم على الباب وصار يأخذ تراباً من الأرض ويذره على رؤوسهم ويقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٧)، «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٤)، وقد عزاه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يُبۡصِرُونَ ﴾ [يس: ٩]. وخرج فلما أصبح علي رضي الله عنه وخرج قالوا: أين محمد؟

قال: خرج من بين أعينكم وأنتم تنظرون(١).

والمقصود أنه خرج من مكة وقد بقي فيها ثلاث عشر سنة يدعو لى التوحيد.

* * *

وَالهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

الشرح:

والمقصود من الهجرة أن يهجر الإنسان بلده وماله وأهله لله جل وعلا ويذهب لنصرة دينه وإظهاره ولمساعدة إخوانه الذين يكونون في بلد الحكم لهم فيه، فالهجرة فرض على كل من يستطيع، فلما فتحت مكة قال الرسول ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»(٢).

والمقصود لا هجرة من مكة، ويقول العلماء: هذا فيه بشارة بأن مكة

---

(١) مرسل بسند صحيح عن محمد بن كعب القرضي، انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري (١/ ٢٠٧)، وانظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٢٨). ذكره ابن كثير والطبري في التفسير عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وكذلك ذكره عبدالرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨٤).

(٢) «البخاري» (٢٧٨٣) كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و«مسلم» (١٨٦٤) كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٧٥٦٣) في «صحيح الجامع».

سوف تبقى على الإسلام إلى قيام الساعة، والهجرة نوعان:

النوع الأول: هجرة انتقال البدن من مكان إلى أخر.

النوع الثاني: هجرة انتقال القلب، وهي أن تهاجر بقلبك إلى ربك مع رسولك ﷺ بطاعة الله جل وعلا وإخلاص العمل له وخوفه ورجاؤه، وهما فرض على كل مسلم.

* * *

وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ،

الشرح:

يعني أنها واجبة وفرض لابد منه وهي فيما إذا خاف الإنسان على دينه ولا يستطيع أن يقوم بالدين، فإذا وجد من يرغمه ويمنعه من ممارسة شعائر الدين كالصلاة والصوم وغيرها وجب عليه أن يفارق هذا المكان وإن لم يفعل فهو متوعد بالنار.

قبل أن يأمر الله جل وعلا رسوله ﷺ بالخروج من مكة والهجرة كان الرسول ﷺ ينتظر ذلك، وكان أبوبكر رضي الله عنه يسأله الصحبة وقد أعد الرواحل لذلك، فخرج واختفى في غار حراء ثلاثة أيام وقد جاء الكفار ومعهم القافة الذين يعرفون الأثر، فجاءوا إلى الغار واستداروا عليه ونظروا، فوجدوا أن العنكبوت قد نسجت على بابه والحمام قد عشش، فقالوا: أن هذا مهجور ولا أحد فيه، وأبوبكر رضي الله عنه يقول له: والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، ولكن لا يبصرون وقد عمّاهم الله جل وعلا عليهم، وكل هذا حتى يَعمل الأسباب ويكون قدوة لأمته وإلا فالله جل وعلا قادر على أن يحمله إلى المدينة بلا مسير كما

رفعه إلى السماء، وكذلك قادر على أن يهلك الكفار، فأجرّ رجلاً من الكفار يقال له عبدالله بن أريقط وأعطاه الرواحل وواعده بعد ثلاث يأتيه في مكان معين، وكان دليله على الطريق(١)، فركبوا معه وساروا من جهة الساحل، وكانت قريش أرسلت الرسل وجعلت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فصاروا يبحثون عنه، ولكن الله جل وعلا يتولاه ولهذا لما رأى ما في أبي بكر رضي الله عنه من الخوف قال له: لا تحزن إن الله معنا، وقال له: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، فلحقه سراقة بن مالك رضي الله عنه وقد رآه وكان يريد أن يحظى بجائزة قريش التي هي مئة ناقة، والرسول ﷺ يسير ولا يلتفت بل يقرأ وأبوبكر رضي الله عنه خائف يتلفت، فقال: يا رسول الله لحقنا الطلب. قال: لا تخف، فلما قرب منهم على فرسه ساخت فرسه في الأرض، فقال سراقه: ادع الله أن يخلصني ولك مني ألا آتيك بما تكره، فدعا الله وقال له: كيف بك إذا أُلبست تاج كسرى، وهو كافر وكان رجلاً كبيراً طويلاً، ثم قال له: هذه كنانتي وإبلي أمامك أعطيك إياها حتى تصير علامة للراعي. قال: لا حاجة لنا بذلك ولكن عمي علينا الناس ورد من خلفك، فرجع وصار يقول: كفيتكم هذه الجهة وليس فيها أحد(٢)، وكل هذا من فعل الأسباب، وليكون قدوة لأمته، فلا يقول: أتوكل على الله ويترك الأسباب؛ لأن التوكل هو فعل السبب مع اعتماد القلب على الله جل وعلا بحصول المراد، أما تعطيل السبب لا يجوز لا

---

(١) كنز العمال، صفوة الصفوة.

(٢) «البخاري» (٣٦١٥) كتاب المناقب، باب علامات النبوة، «مسلم» (٢٠٠٩) كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، ويقال له حديث الرحل، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

شرعاً ولا عقلاً.

ثم ﷺ بقي في المدينة بقية عمره وهي عشرة سنوات وفرضت عليه الفرائض وأمر بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكمل الله جل وعلا به دينه وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فلما أكمل الله جل وعلا له الدين وبلغ الدعوة قبضه الله جل وعلا إليه، وهذا الدين الذي جاء به يجب التمسك به؛ لأن الله جل وعلا لا يقبل من أحد غيره ولو أتى بكل الطاعات من المعروف والصدقات وغيرها، فلابد أن يتبع الرسول ﷺ ويمتثل أمره.

* * *

وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ،

الشرح:

والمقصود بقيام الساعة يعني بداية علاماتها الكبرى، فإذا بدأت فلا تفيد الهجرة كما أن التوبة لا تنفع، والأعمال التي يتزود بها الإنسان ويأتي بها ابتداءً لا تنفع؛ لأن الناس اضطروا إلى الإيمان وكُشف الأمر لهم، وإذا كُشف الأمر فلا ينفع الإيمان بشيء مُشاهد، وإنما الإيمان الذي ينفع هو الإيمان بالغيب، ولهذا في صحيح مسلم: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها إذا لم تكن آمنت: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها**»(١). فطلوع الشمس من مغربها أمر واضح، والدابة ذُكر في رواية

(١) «مسلم» (١٥٨) كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. و«سنن الترمذي» (٣٠٧٢) كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الأنعام، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي ضعيفة لم تثبت أن الدابة هي ولد ناقة صالح عليه السلام؛ لأن قوم صالح قالوا لنبيهم: لا نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذا الجبل ناقة تروينا من الحليب، فتحدوه بشيء لا يستطيعه هو، فأخذ مواثيقهم بأنه لو خرجت الناقة يؤمنون فأعطوه المواثيق؛ لأنهم استبعدوا هذا، فصار للجبل صوت فخرجت منه ناقة عظيمة كبيرة ومعها فصيلها، فصارت ترويهم من الحليب ولكن بشرط أن يتركوا لها الماء، فإذا وردت صار الماء لها وهم يشربون من حليبها، وقد حذرهم أن يتعرضوا لها ولكن الشقاء لا يدع أصحابه، فعقروها بضربها في رجلها فسقطت، فصار فصيلها يصيح فانفلق له الجبل فدخل فيه.

وقد ذكرها القحطاني في منظومته، وهي منظمة ليس لها نظير في الأخلاق وفي التوحيد وفي الفقه، يقول فيها:

واذكر خروج فصيل ناقة صالح يسم الورى بالكفر والإيمان

وهذا كما قلنا ضعيف، والدابة هي ما يدب على الأرض ولا نعلم ما هي، ولكنها ستخرج كما قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وتكليمهم معناه أنها تفرق بينهم بما تضعه في وجوههم، فكل واحد تختمه في وجهه فإذا كان مؤمناً ابيضَّ وجهه، وإن كان كافراً اسودَّ وجهه، ويصبح الناس يتعارفون: هذا مؤمن، وهذا كافر.

وهنا ينتهي العمل، ولكن المشكل هو أن الدجال إذا خرج لا ينفع إيمان من يؤمن، وهو من أول الآيات، ذلك أنه إذا خرج يتغير الكون، فيصبح اليوم الواحد سنة والثاني شهر والثالث أسبوع، فسئل النبي ﷺ:

كيف نصنع بالصلاة في اليوم الذي كسَنَة والذي كشهر والذي كأسبوع؟ قال: «**اقدروا لها**»(١) يعني اليوم الذي كسنة صلوا فيه صلاة سنة، والشهر صلوا فيه صلاة شهر، والأسبوع صلوا فيه صلاة أسبوع، وجاء في الحديث الذي في الصحيحين في ذكر الطائفة المنصورة: «**لا يضرهم من خالفهم ومن خذلهم حتى تقوم الساعة**» وفي رواية: «**حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**»(٢)، وقيام الساعة هي ساعتهم وهي الريح التي تأتي من قبل اليمن تقبض كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى إلا شرار الناس وعليهم تقوم الساعة بالنفخ في الصور النفخة الأولى ويموت فيها كل حي من المخلوقات، وفي النفخة الثانية يحيون.

❊ ❊ ❊

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء: ٩٧].

الشرح:

يعني تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم: أين مكانكم.

❊ ❊ ❊

---

(١) «مسلم» (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، وأبي داود (٤٣٢١) كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، من حديث النواس بن سمعان. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم: (٤١٦٦) في «صحيح الجامع».

(٢) «البخاري» (٣٦٤١) كتاب المناقب، باب (بدون ترجمة)، من حديث معاوية رضي الله عنه، و«مسلم» (١٩٢٤) كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٦٦١٢) في «صحيح الجامع».

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

الشرح:

يعني في بلد استضعفنا فيه، ولا نستطيع أن نزاول شعائر ديننا من صلاة وصوم وأذان، ولو فعل أحد منا ذلك لعُقب أو قتل.

* * *

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧].

الشرح:

هنا تخاطبهم الملائكة، يعني أن أرض الله ليست هي البقعة التي أنتم فيها بل هي واسعة، ويمكنكم أن تذهبوا إلى أي مكان وتعبدوا ربكم فيه.

* * *

﴿فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

الشرح:

أي تهجروا هذا المكان إلى مكان لا تمنعون فيه من أداء شعائر دينكم.

* * *

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

الشرح:

فدل على أن تركهم للهجرة أوجب لهم النار، وهذه نزلت في بعض الذين قتلوا في بدر؛ لأن الكفار لما خرجوا إلى بدر أرغموا بعض المسلمين الذين عندهم بالخروج معهم، وهذه التي يُخاف منها؛ أن ينزل المسلم في بلد الكفار ويأخذ منهم الجنسية فيرغمونه ولابد أن يعمل

الشيء الذي يأمرونه به، فإذا وقع البلد في حرب يكون معهم، فهؤلاء خرجوا مع الكفار مرغمين فقتل بعضهم، فلما علم الصحابة بذلك قالوا قتلنا إخواننا المؤمنين، فنزلت هذه الآية بأنهم من أن هل النار؛ لأنهم كانوا مع الكافرين وتركوا الهجرة، فمعنى ذلك أنه إذا كان المسلم مع الكفار يكثر سوادهم ويقوم بأعمالهم ويسكن في بلادهم فحكمه حكمهم، يكون معهم.

* * *

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨].

الشرح:

استثنى الذين لا يستطيعون كالرجل الذي لا يعرف الطريق وليس عنده قدرة، وكذلك المرأة والصبي، فإذا كان عنده حيلة يتحيل بها ويتخلص وجب عليه.

* * *

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٩].

الشرح:

هنا ترجي لأنهم عاجزون، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿عَسَى﴾ في كلام الله متحققة واجبة؛ لأنها تفيد الترجي في اللغة، والله جل وعلا يعلم كل شيء، يعلم المستقبل كيف يكون.

* * *

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

الشرح:

يعني ابحثوا عن الأرض التي تعبدون فيها الله وحده ولا أحد يحول بينكم وبين عبادتكم له، وهي أيضاً دليل على وجوب الهجرة إذا كان الإنسان يخاف على دينه ويمنع من ممارسته.

* * *

قَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِين الَّذِيْنَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا؛ نَادَاهُم اللهُ بِاسمِ الإيمَانِ(١).

الشرح:

يعني الذين مُنِعوا أو الذين آمنوا وبقوا مع الكفار، وناداهم باسم الإيمان قال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

* * *

---

(١) انظر: تفسير البغوي عند قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. قال (٦/ ٢٥٢): «وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة، وقالوا: نخشى، إن هاجرنا، من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج، لكن المؤلف رحمه الله ذكر خلاصة ما جاء عن السلف، وبين مراده من هذا وهو أنهم مع معصيتهم بترك الهجرة لم يكفروا بل ناداهم باسم الإيمان. ولهذا جاء في حاشية ابن قاسم (ص١٤٤): «حكاه عن جماعة من التابعين، فأفاد: أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاصٍ بتركها، فهو مؤمن ناقص الإيمان عاصٍ من عصاة الموحدين المؤمنين.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوبةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١).

الشرح:

فالهجرة باقية كما بقي القتال في سبيل الله، وانقطاع التوبة هو عدم قبولها، والتوبة لا تقبل في مواضع:

الموضع الأول: إذا حضر الموت.

الموضع الثاني: ظهور العلامات التي ترغم الناس على الإيمان، وطلوع الشمس من مغربها ليس خاصاً، ففي صحيح مسلم يقول: **«ثلاث إذا خرجن لم يقبل من نفس إيمان لم تكن آمنت قبل: الدجال والدابة، وطلوع الشمس من مغربها»**(٢)؛ لأنها أمور ترغم الإنسان على وجوب الإيمان؛ لأن الكون يتغير، والدجال إذا خرج بدأ تغير الكون، فيصبح مقدار اليوم سنة واليوم الثاني يكون شهراً والثالث يكون أسبوعاً ثم تعود الأيام على ما كانت عليه.

* * *

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي المَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثْلُ: الزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ،

---

(١) «أبوداود»، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، و«أحمد» (١/ ١٩٢)، و«الدارمي»، كتاب السير، باب أن الهجرة لا تنقطع، و«الهيثمي» في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٠)، وقال: روى أبوداود والنسائي بعض حديث معاوية، رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الصغير» من غير حديث ابن السعدي، ورجال أحمد ثقات.

(٢) سبق تخريجه.

الشرح: ـ

وأمره هو أمر لأمَّته كلها، فأوحيت إليه بقية الشرائع وأمر بها، ولم يؤمر بالحج على القول الصحيح إلا في السنة التاسعة، ولكنه ﷺ لم يحج في تلك السنة؛ لأنها وافقت النسيء، ولهذا أرسل أبا بكر رضي الله عنه نائباً عنه في الحج، ثم أرسل بعده علياً لينبذ العهود إلى المشركين وليبين أمر رسول الله ﷺ لمنع الحج للمشركين والعراة، لأنهم في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراة، وهذا قد شرعته قريش وفرضته على الناس، ويزعمون أنهم أهل البيت الطاهرون ويقولون لغيرهم: أنتم تأتون بثياب نجسة متقذرة بالخطايا فلا تطوفون بالبيت في ثيابكم، فإذا وجدتم ثياباً جديدة أو يعطيكم أحد وإلا تطوفون عراة، فإذا لم يجد الإنسان من يعيره ثوباً طاف عرياناً حتى النساء، ولكن النساء يطفن بالليل، ولهذا جاء عن امرأة قولها:

اليوم يبدوا بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله(١)

والمقصود بـ«يبدوا» يعني فرجها، فالجهل لا يأتي إلا بكل قبيح ولا خير فيه، فأرسل الرسول ﷺ مَن يمنعهم، فقال: «**لا يحج بعد هذا العام**

---

(١) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى أن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب وهي تقول:

اليوم يبدوا بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. «روح المعاني».

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»(١)، فصاروا ينادون في فجاج مكة وفي المشاعر كلها، فلما صارت السنة العاشرة وافقت تلك السنة ما شرعه الله جل وعلا، لأنهم كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر حتى يقاتلوا في المحرم؛ لأن المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة هذه الأشهر الحُرم ويُحرم فيها القتال وكانوا يحترمون ذلك، ولكن ثلاثة أشهر متوالية وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تُطِيل عليهم المدة بلا قتال ففعلوا تلك الفعلة، وقالوا: نجعل بدل المحرم صفراً في هذه السنة وفي السنة التالية تكون كما هي، والسنة التي حجها الرسول ﷺ وافقت إبقاؤه كما جعله الله جل وعلا، ولهذا لما قام يخطب قال: «**إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم**»(٢) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، رجب مضر لأن مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فأضيف إليها، فهذا هو السبب في كونه تأخر عن الحج لما فرض في السنة التاسعة، وهو حج مرة واحدة فقط واعتمر أربع مرات.

* * *

---

(١) «البخاري» (٤٣٦٣) كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، و«مسلم» (١٣٤٧) كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٧٦٣٢) في «صحيح الجامع».

(٢) «البخاري» (٤٦٦٢) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، و«مسلم» (١٩٧٤) كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني رحمه الله: «صحيح، سند الحديث: حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن محمد عن ابن أبي بكرة عن أبي بكرة».

وَغَيْرَ ذَلِكَ مَنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ؛

الشرح:

يعني الشرائع التي علمناها وما كُلفنا بها، فمنها ما هو فرض، ومنها ما هو نفل.

* * *

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ،

الشرح:

يعني في المدينة بعد الهجرة.

* * *

وَتُوُفِّيَ - صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ. وَهَذَا دِينُهُ،

الشرح:

يعني هذا الدين الذي يذكره هو أصوله وإذا تمسك به الإنسان نجا من عذاب الله.

* * *

لا خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا منه، والخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ،

الشرح:

والتوحيد فيه كل خير وسعادة، فالتوحيد يكون في العبادات كلها، في جميع ما تتعبد الله جل وعلا به، وسمي توحيداً لأنه يكون واحداً غير موزع كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

كن واحداً لواحد في واحد   أعني طريق الحق والإيمان

يعني كن عبداً لواحدٍ وهو الله، ولا تكن موزعاً وتكن عبداً للشهوات

والمعاصي، في واحد يعني في سبيل واحد وفي طريق واحد ولا تسلك الطرق الملتوية بل اسلك طريق الحق والإيمان، فالتوحيد يكون في جميع العبادات وإن لم يكن توحيداً فهو شرك، والشرك يبطل العمل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فإذا كان هذا يُخاطب به الرسول ﷺ والرسل قبله فكيف بآحاد الناس؟

* * *

وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ،

الشرح:

يعني الذي يأمر به، والأمر الذي يأمر به يأتي على طريقين:

أحدهما: الوجوب والفرض.

الثاني: الاستحباب، حتى يتزود الإنسان من العمل الكثير ويتحصل على الدرجات العلى؛ لأن الناس لا يستوون، فبعض الناس لا يريدون أن يفعلوا إلا الواجب فقط ويتركوا المحرم، وأناس لهم رغبة في الخير ففتح أمامهم الباب، ولهذا جاء في حديث عمرو بن عبسة قال لما سئل عن الصلاة: «**الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقلل**»[1] هذا يدل على أن الإنسان إذا أكثر من الصلاة لا يقال له: إنك مبتدع أو أنك جئت بشيء غير مشروع، فبعض الناس يقول اقتصر على الفرائض وعلى النوافل التي ثبتت وهذا خطأ، لهذا كان أحد الصحابة يخدم الرسول ﷺ فلما كان في

(١) «تفسير ابن كثير» في سورة النساء، و«تفسير القرطبي» في سورة البقرة، وخرجه الآجري. والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور. والله تعالى أعلم.

أحد الأيام وجده قد هيأ له وضوءه وما يحتاج إليه، فقال له: «من فعل هذا؟» قال: أنا. قال: «سلني» قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أوغير ذلك؟» قال: هو ذلك. قال: «إذن أعني على نفسك بكثرة السجود»[١]. فإذا أكثر الإنسان من السجود رفعه الله.

* * *

وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَنَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ

الشرح:

ومعناهُ أن الرسول ﷺ أمر بكل ما يقرب إلى الله وبينه ونهى عن كل ما يمكن أن يقطع الإنسان من الوصول إلى الله ويقربه إليه من الأعمال والعقائد والأقوال وغيرها، ولهذا يجزم الإنسان أن الرسول ﷺ بيَّن لعباد الله كيف يعتقدون في ربهم؛ لأن هذا هو الأصل الذي يُبنى عليه غيره وليس كما يقوله أهل الضلال أن الأمر تُرك للعقول للنظر فيه.

* * *

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً،

الشرح:

يعني بعثه للناس جميعاً عرباً وعجماً جناً وإنساً وكل من على وجه الأرض فهو مبعوث إليهم، وقد أنذرهم وبين أنه مبعوث إليهم، لليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ؛

الشرح:

فلا طريق إلى الخلاص من العذاب إلا بطاعته وإتباعه صلوات الله وسلامه عليه وإلا يكون العذاب ملازماً للإنسان إذا لم يتابعه.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الشرح:

الناس كلمة عامة ويدخل فيها كل من أطلق عليه أنه من الناس ودخلت الجن في هذا للنصوص الأخرى، فالجن مكلفون مثل الإنسان وهم مجزيون، فالمؤمن يدخل الجنة على القول الصحيح والكافر في النار؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. فالكفرة هم حطب جهنم من الجن والإنس وتمتلئ منهم.

* * *

وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛

الشرح:

يعني كل ما نحتاجه في ديننا بينه ووضحه، ولم يكلنا إلى عقولنا، فالذي لم يبينه الرسول ﷺ ولم يوضحه فهو ليس من الدين، والدليل على هذا قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. يعني أن الذي ما بلغه الرسول ﷺ فليس من الدين بل هو من البدع.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الشرح:

وهذه الآية نزلت في حجة الوداع وهو في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، قال يهودي لعمر رضي الله عنه: إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً، فقال: وأي آية؟ فذكر هذه الآية، فقال: لقد نزلت في يوم عيد، في عرفات يوم الجمعة، يعني في عيدين ليس عيداً واحداً، الجمعة عيد وعرفة عيد، فنحن نتخذها عيداً(١).

* * *

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

الشرح:

يعني أنه يلزم اعتقاد ذلك؛ لأنه واقع وقد أخبر الله به كما في هذه الآية وغيرها.

* * *

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛

الشرح:

البعث في اللغة: إثارة الشيء، يقال: بعثت البعير إذا كان باركاً وأثرته، وبعثت الصيد من مكانه إذا أثاره، وبعثت فلاناً إلى فلان إذا أرسلته إليه،

---

(١) «البخاري» (٤٥) كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، «مسلم» (٣٠١٧) كتاب التفسير.

ولكن المقصود بالبعث هنا إخراج الناس من قبورهم أحياءً، والله جل وعلا يخرجهم من قبورهم في آن واحد جميعاً، وكثير من الكفار كانوا ينكرون هذا، لأنهم لا عهد لهم به، وبين الله جل وعلا هذا في أدلة كثيرة منها النشأة وكيف يولد الإنسان ومنها النبات، جاء رجل من الأعراب فقال: يا رسول الله كيف يبعث الله الموتى؟ قال: «**هل مررت بأرض من أرض قومك مجدبة**». ليس فيها نبات. قال: نعم. قال: «**ومررت بها وهي مخصبة**» قال: نعم. قال: «**كذلك يحيي الله الموتى**»(١). يعني أرض ميتة نزل عليها الماء فأنبتت النبات بأمر الله جل وعلا ولذلك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقال الله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. فالقادر على الخلق العظيم الكبير قدرته على الشيء الصغير من باب أولى.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

الشرح:

يعني من الأرض، وكل الناس أصلهم من التراب، ولكن جعلهم الله جل وعلا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ثم قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فمن كان تقياً فهو الكريم عند الله، من أي صنف كان، والمقصود أن الإنسان بعد الموت يصير تراباً ثم يحيه الله ويخرجه من الأرض كما كان في الدنيا.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١٥٦٠٣) «مسند المدنيين»، من حديث أبي رزين العقيلي رضي الله عنه.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

الشرح:

يعني خلقاً جديداً غير الخلق الأول.

* * *

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

الشرح:

يعني أبانا آدم، أخرجه من الأرض، ثم يميتكم بعدما كنتم أحياء وتعودون إلى أصلكم التراب ثم يخرجكم أحياء مرة أخرى ويجازيكم بالأعمال، ثم بعد هذا الإخراج يبقون أحياء دائماً ما دامت السماوات والأرض إما في النار وإما في الجنة، وليس هناك منزلة ثالثة.

* * *

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ،

الشرح:

فهم محاسبون من الله جل وعلا،وأنه سيذكر لهم أعمالهم وسيجازيهم عليها، وله عليهم كتاب لا يترك شيئاً إلا وقد أحصى، لأن الإنسان معه أربعة من الملائكة اثنان في الليل واثنان في النهار يكتبان عمله ولا يتركون شيئاً إلا كتبوه، ولهذا يقول المجرمون إذا أخرج لهم الكتاب: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]. فلا يستطيع أن ينكر شيئاً، فإن أنكر شهدت عليه أعضاؤه من سمع وبصر وكذلك تشهد عليه الأرض.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

الشرح:

فجعل الناس قسمين:

الأول: المسيء، ويجزى بالنار.

الثاني: المحسن، ويجزى بالجنة، والجنة شيء عظيم جداً لو علمه الإنسان لا يمكن أن ينام في طلبها ولا يمكن أن يستقر، ولكنها صارت غيباً، والناس يتفاوتون فيه، فهناك أمل وحب للدنيا يقطع دون هذه الأمور، وإلا فالجنة فيها من النعيم والبهجة والسرور ومن الحياة التي لا يتطرق إليها لا مرض ولا فناء ولا انقطاع ولا سآمة ولا حزن ولا تسمع فيها لغواً ولا كذباً ولا غير ذلك بل فيها النعيم المقيم والمساكن الطيبة، والإنسان لو اطلع على شيء من ذلك لصار له حالة أخرى، ذكر ابن أبي الدنيا في بعض كتبه يقول: إن قافلة خرجت من بغداد إلى الحج، فكان في صحبتهم شاب فكان لا يفتر عن الذكر وعن الصلاة وعن الصوم، فتعجبوا منه وقالوا: ما شأنك أنت؟ قال: أنا رأيت شيئاً جعلني لا أترك شيئاً من العمل ولعلي أصل إليه، فقالوا: ماذا رأيت؟ قال: رأيت في المنام أني في قصر مبني من ذهب وفضة وبين شرفاته امرأة لم أرى مثلها ولا

أظني أرى مثلها، فقالت لي: إياك أن تقطع دوننا.

ونحن نقرأ قوله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦-٥٩]. ولا نتأثر بهذا، ونتأثر برؤيا في المنام وتحملنا على شدة العمل والاجتهاد فيه ومثل كلام رب العالمين جل وعلا لا يؤثر، والسبب أن إيماننا فيه دخن وضعف وليس كإيمان الصحابة الذين يقولون: لو كُشف لنا الأمر ما ازددنا عما نحن فيه.

* * *

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ.

الشرح:

يعني أن الإيمان بالبعث لابد منه، والتكذيب به والشك فيه كفر يجعل الإنسان من أهل النار، نسأل الله العافية.

* * *

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧].

الشرح:

كلمة ﴿زَعَمَ﴾ الغالب أنها تأتي للكذب، الذي لا يبنى لا على دليل ولا على خبر صحيح بل هو ظنون كاذبة.

قوله: ﴿لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ هذا نفي للمستقبل.

* * *

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

الشرح:

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقسم على ثبوت البعث، وقد جاء الأمر بالقسم في ثلاثة مواضع في القرآن وهذا أحدها، والثانية في سورة سبأ، والثالثة في سورة يونس.

* * *

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

الشرح:

يعني تُخبرون به ويُقص عليكم.

* * *

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛

الشرح:

فهم يبشرون بالخير والسعادة من أطاعهم واتبعهم، وينذرون من خالفهم وعصاهم بجهنم وبالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكل من كذب الرسل يؤخذ في الدنيا ويعذب في الآخرة إذا كانوا أمماً، أما إذا كانوا أفراداً فهم لا يعجزون الله، فقد يؤخذ وقد يُمهل، فالله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. فتركهم في حياتهم وإطالة عمرهم شر لهم.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

الشرح:

يعني لئلا يحتج الناس على الله ويقولون: ما جاءنا أمرك ولا أرسلت لنا رسولاً، ولو جاءنا أمرك لأطعناك واتبعناك، فقطعت هذه الحجة، فليس للناس على الله حجة، فمعنى هذا أن الإنسان إذا سمع أن له رسولاً وجب عليه أن يتبعه، واتباعه يكون بالبحث عن أقواله وأفعاله وأوامره التي يأمر بها ونواهيه التي ينهى عنها، فإن لم يفعل هذا فمعناه أنه مُعرض، والإعراض عن الدين وعدم الاهتمام به أحد نواقض الإسلام.

* * *

وَأَوَّلهُمْ نُوحٌ عليه السلام، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣].

الشرح:

فجعل النبيين بعد نوح عليه السلام، فنص على أنه قبل النبيين، وكان الناس قبل نوح على التوحيد مخلصين ولم يكن عندهم شرك كما قال ابن عباس: كان قبل نوح عشرة قرون من بني آدم كلهم على التوحيد ثم طرأ فيهم الشرك بسبب حدث عندهم، وهو أنه كان عندهم رجال صالحون يقتدون بهم ويقومون بينهم في الأمر الذي فيه الصلاح والخير، ثم ماتوا في زمن متقارب حتى انتهوا، فأسف عليهم قومهم أسفاً شديداً، لأنهم فقدوا إرشاداتهم وتعليماتهم وحثهم على الخير وهم أهل الخير،

فجاءهم الشيطان في صورة ناصح وقال لهم صوروا صورهم وانصبوها في المجالس التي كانوا يجلسون، فإذا رأيتم صورهم تذكرتم أفعالهم واجتهدتم باجتهادهم، فاستحسنوا هذا وفعلوه، فصاروا على هذه الطريقة زمناً ثم ماتوا ونسي السبب الذي من أجله صورت هذه الصور، فجاء قوم بعدهم فجاءهم الشيطان وقال لهم هذه الصور التي صورها أجدادكم ما صورهم إلا لأنهم يتوسلون بها ويتشفعون بها، ومن هنا بدأ الشرك، وقد ذكرت في قوم نوح عليه السلام، وهي: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، فهذه أسماؤهم التي صارت معبودات، وصار بعضهم يوصي بعض بالتمسك بها، وصار هناك أيضاً أصنام غيرها.

المقصود أن نوح عليه السلام هو أول الرسل، والرسل هم الذين يرسلون إلى الكفار، يوحي إليهم بشرائع وأوامر ويرسلون إلى قوم كافرين، أما النبي فيوحى إليه وهو في أمة مسلمة.

* * *

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولاً مِنْ نُوح عليه السلام إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الشرح:

الأمة: هي الجماعة من الناس، والأمة جاءت في القرآن بعدة معاني وهذا أحدها.

والمعنى الثاني: الطائفة من الزمن كقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].

والمعنى الثالث: الرجل القدوة كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

والمعنى الرابع: الملة والدين كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

* * *

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيْمَانَ بِاللهِ.

الشرح:

لقوله جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وكذلك: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

* * *

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

الشرح:

والضمير في قوله: «حده» يعود على العبد، وحد العبد أن يكون عبداً، ولا يجوز أن يخرج عن هذا الحد فلا يكون رباً ويأمر كما يأمر الله جل وعلا، ثم جعل التجاوز يكون في ثلاثة أمور: في العبادة وفي الاتباع وفي الطاعة، فمن عُبد من كل مخلوق فهو طاغوت سواءً كان عاقلاً أو غير عاقل، ولكن هذا يحتاج إلى قيد بأن يقال: من عُبد وهو راضٍ فهو

طاغوت، والقيد هو الرضا، أو يكون متبوعاً بأتباع يتبعونه على الكفر والضلال، فهو طاغوت يعني هو الرئيس في معاصي الله جل وعلا، أو مطاع في المعاصي.

* * *

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ،

الشرح:

والطواغيت قد ملأت الأرض، وهذه الرؤوس الخمسة هي أجناس وليست خمسة أفراد فقط، بل كل جنس له أعداد كبيرة، وإبليس ليس فرداً فقط، وهناك أباليس من بني آدم كثيرون ومن الجن ومن غيرهم.

* * *

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ،

الشرح:

وقد يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه سواءً بالصراحة أو بغير ذلك، وقد لا يرضى إلا أن يكون مُطاعاً معبوداً.

وهذا أعظم من الذي قبله.

* * *

وَمَنْ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ،

الشرح:

لأن الله استأثر بعلم الغيب ولم يطلعه إلا من ارتضى من رسول فإنه يجعل له دلائل على نبوته بإخباره بأمور مغيبة ليكون ذلك دليلاً على أنه

رسول، لهذا استثنى الله ذلك.

* * *

وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ(١)؛

الشرح

يعني نبذ حكم الله واتخذ القوانين يحكم بها، فيكون من رؤوس الطواغيت يعني أنه يدعو الناس للحكم بالطاغوت أو يأمرهم به ويلزمهم بذلك.

* * *

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الشرح:

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]. واجتنابه عدم الاقتراب حوله، فالاجتناب أبلغ من قول: أترك، اجتناب، يعني كن بعيداً عنه، ويقول الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، وهذا كلام عام، ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطاغوت الكافر والجبت الشيطان وقال السحر، فالسلف يفسرون الشيء ببعض أفراده وليس بالكل وذلك حسب حاجة السامع، وابن القيم جاء بكلام هام، والعروة الوثقى

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٥٣).

هي لا إله إلا الله يعني هي التوحيد.

* * *

وَهَذَا مَعْنَى لا إله إلا اللهُ، وَفِي الحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ،

الشرح:

يعني العمود الذي يقوم عليه الدين، أما الأساس الذي يُبنى عليه فهو التوحيد.

* * *

وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

الجهاد هو أرفع ما أمر به وأعلاه، وقد أعدَّ الله للمجاهد في سبيله ما لم يعدّ لغيره، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لوددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أقتل»(٢) ولما قُتل عبدالله بن حرام بأُحُد وكان مقبلاً فلم يُعرف من كثرة الطعنات التي في بدنه، قال النبي ﷺ لابنه جابر: «أفلا أبشّرك بما لقي الله به أباك» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً فقال: يا عبدي تمنّ علي أعطك، قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية، قال الرب

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٦١٦) كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، و«ابن ماجه» (٣٩٧٣) كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ورواه أحمد والنسائي كلها من رواية أبي وائل عن معاذ، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، ورواه الطبراني مختصراً.

(٢) البخاري (٣٥) كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، مسلم (٣٤٨٧) كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون»[١].

الشرح:

هذا حديث معاذ رضي الله عنه الذي قال فيه للرسول ﷺ: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة ويبعدني من النار؟

قال: «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على مَن يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل» ثم تلا قوله جل وعلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله».

* * *

وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ.

* * *

(١) الترمذي (٢٩٣٦) كتاب التفسير عن رسول الله، باب ومن سورة آل عمران، ابن ماجه (٢٧٩٠) كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه

الفهـــرس